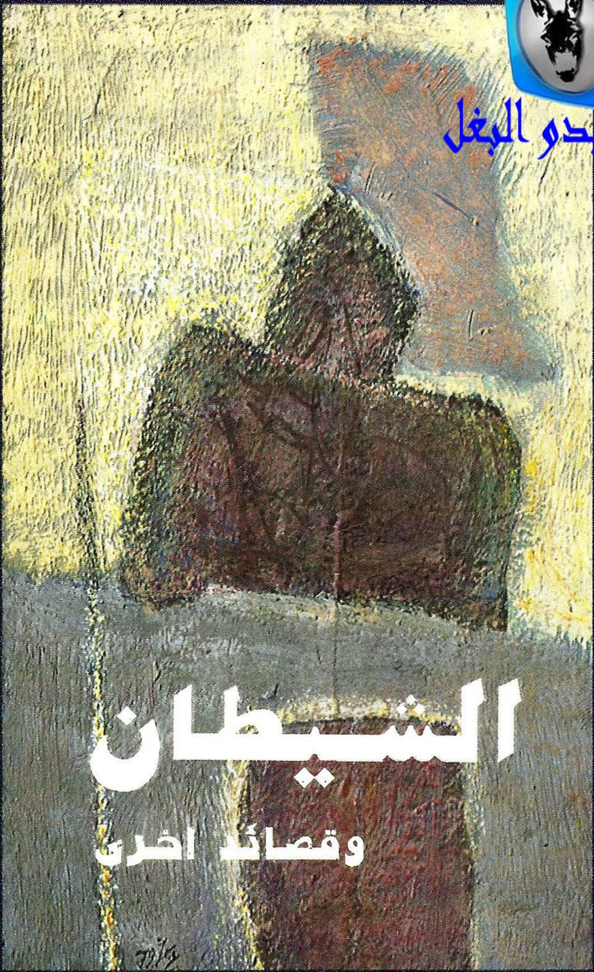
ليرمونتوف



الشيطان

وقصائد اخرى

ترجمة وتقديم

رفعت سلام

الشيطان

وقصائد اخرى

لوحة الغلاف للفنان: عمر جهان
التصميم والاخراج: محمد فهمي

ليرمونتوف

الشيطان

وقصائد اخرى

ترجمة وتقديم

رفعت سلام

منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات
الطبعة الأولى
1991

«فَسَاعَةُ الفِرَاقِ وَسَاعَةُ اللِّقَاء
لاَ تَمْنَحُ الْفَرَحَ وَلاَ الأَسَىٰ،
وَلاَ الأَسَفَ عَلَى الْمَاضِي الَّذِي يَتَلاَشَىٰ سَرِيعا،
وَلاَ الرَّغْبَةَ فِي أيِّ غَد.
فَلْيَكُن يَوْمُ الذِّكْرَىٰ
يَوْماً وَاحِداً طَوِيلاً يَفِيضُ أَسى»

أبو عبدو البغل

ليرمونتوف: أزمنة للشعر والجريمة

(1)

وَدَاعاً، وَدَاعاً، يَا رُوسْيَايَ الْقَذِرَة،
يَا وَطَنَ السَّادَةِ وَالْعَبِيدِ الْكَئِيبِ! وَدَاعَا.

كان الحر شديداً ذلك المساء، مساء الخامس والعشرين من يوليو 1841. والسماء تغطيها السحب الرمادية القاتمة، التي تنذر بالعاصفة.

كان ليرمونتوف يقف في قمة المنحدر، و«مارتينوف» في أسفله، حيث يؤهله موقعه لتصويب النار بإحكام أكبر، من الأسفل إلى الأعلى. أما ليرمونتوف، فكان بادي الهدوء، واثقاً من نفسه. وقد أخبر «الكسي ستوليبين» ـ صديقه ـ بأنه سيطلق الرصاص في الهواء.

وأعطى الشهود شارة البدء. ولكن ليرمونتوف ظل جامداً في مكانه، يتطلع إلى السماء، وقد ثنى ذراعه الأيمن على صدره، وصوب المسدس نحو الفضاء. ولكن «مارتينوف» تقدم بخطى سريعة، وصوب المسدس نحو الشاعر بإحكام.

وحينما صفع البرق الأفق البعيد بعنف، وشرعت قطرات المطر في السقوط رويداً، تهاوى ليرمونتوف على الأرض المبتلة. واستلقى هناك، في سفح الجبل، دون أن يُفلت أنّة أو آهة. كان وجهه شاحباً، لامعاً، مثل قناع من الشمع، وجرح مفتوح تسيل منه الدماء إلى الأرض المبتلة بالمطر.

واقترب «مارتينوف» منه مذعوراً، خاوي النظرات، وهمس: «فلتصفح عني، يا ميخائيل!»، ثم ولى الأدبار. ولم تمض لحظات حتى أقفر المكان، إلا من الجثة الطريحة، والشهود. وانفجرت الأمطار والبروق والرعود ضارية. وذهب الجميع، إلا «غليبوف»، فجلس في الطين الغزير، ليرفع رأس الشاعر ويضعها على ركبتيه.

ولم ينجح «ستوليبين» إلا في إقناع أحد أصحاب العربات المتهالكة بالقدوم معه، والعودة بالجثة إلى المدينة. ورفعا الجسد، ووضعاه في العربة الضيقة. كان رأسه يتدلى خارج الصندوق، في الفراغ، أما ساقاه، فقد انثنتا تحت جسده المتجمد المبلول.

وأضجعاه على أريكة في داره. كان الجلد متوتراً مشدوداً، والشفتان منفرجتين قليلاً، والجفنان غير منطبقين، فبدت العينان، من ورائهما، غامضتين. كان البكاء قليلاً، أما الأكثرية ــ في الخارج ــ فكانت تشرب نخب الخلاص.

ورفض الكهنة أن يُصَلّوا على الجثمان. فهم يعرفون أن البلاط ناقم على الرجل. ورفض قائد المنطقة أن يطلب منهم ذلك، حتى لا يجر على نفسه غضب أقوياء الدولة وأصحاب النفوذ.

وفي السابع والعشرين من يوليو، كان النهار رائعاً، والشمس لامعة على الأفق البعيد. وكانت بعض الأصوات ترتل في خفوت نشيد الموتى. وعندما تساقطت أولى قبضات التراب على خشب النعش، ابتدأ المشيعون في الرحيل إلى مشاغلهم العادية.

ولم يكن الشاعر قد أتم ــ بعد ــ عامه السابع والعشرين.

فهل كانت ثورته على قتل «بوشكين» نوعاً من الثورة على مقتله القادم؟ هل كانت صرخته على دم الشاعر العظيم المراق فوق الثلوج الروسية، صرخة على دمه المحكوم بنفس الرصاصة والمصير؟ وهل كانت الإدانة الفاضحة لقاتلي «بوشكين» تشير ــ في نفس الوقت ــ إلى قتلته ــ هو ــ المتربصين، القادمين؟

وهل كان ــ فيما يُشهد روسيا على الجريمة القائمة ــ يُشهدها على الجريمة القادمة؟

* * *

(2)

«مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي جَعَلَنِي فِيهِ الرَّب
حَكِيماً وَنَبِيّاً،
قَرأتُ الْحِقْدَ فِي عُيُونِ النَّاس
وَعَانَيْتُ الْعَدَاوَةَ وَالْهَوَى الْمَرِيض»

كان منذوراً للفجيعة، منذ لحظته الأولى على وجه الحياة. فقد ولد ـ في الثالث من سبتمبر 1814 ـ في قلب العاصفة: العاصفة الأسرية، والاجتماعية السياسية، والشعرية. وكان عليه أن يواجهها ـ جميعاً ـ وحيداً، منفرداً، أعزل من كل سلاح، سوى القصيدة.

(أ)

حينما ولد ليرمونتوف في موسكو، كانت المدينة العريقة لا تزال تعاني آثار الغزو النابليوني في 1812. فقد هجرها سكانها الأصليون، هرباً من العدو الزاحف، وفراراً من السلب والنهب، لتصبح خالية من لقمة العيش التي تسد الرمق. ولم يلبث آل ليرمونتوف أن عادوا ـ بطفلهم الرضيع ـ إلى «**تارخاني**»، مع جدته لأمه، «**اليزابيث الكسييفنا آرسنييف**».

كان زواج «**يوري بتروفيتش ليرمونتوف**» بـ«**ماريا آرسنييف**» قد تم رغم المعارضة المتعصبة للجدة المنتمية إلى عائلة «**ستوليبين**» العريقة. فقد رأت في الزواج القادم محاولة من الزوج لسلب ثروة العائلة، بعد ان انقطعت لرعاية ابنتها، عقب انتحار زوجها قبل ثلاث سنوات، لتتحول الإبنة إلى المعنى الوحيد لحياتها.

ولم تلتفت الإبنة لتحريضات الأم على هدم العلاقة، إلى أن تكتشف وجود علاقة بين زوجها ووصيفتها «**بوليا ايفانوفنا**». وانصرفت عنْ زوجها إلى طفلها الوليد القلق، ليسرع المرض بخطاه في جسدها، حتى الموت في الرابع والعشرين من فبراير 1817، دون أن يتخطى ليرمونتوف الطفل السنة الثالثة.

وحمَّلت الجدة الأب عبء «**جريمة قتل**» ابنتها. واتفقت معه كتابةً على أن يتنازل عن جميع حقوقه في ابنه، مقابل خمسة وعشرين ألف روبل. وأصبح ميخائيل الصغير مُلكاً خالصاً لجدته، بعد خنق الفضيحة.

وتأتي له الجدة بالخادمات من الفلاحات والمربيات المثقفات، فيدخل عالم الأساطير والحكايات الشعبية الروسية، عالم أشقياء الفولجا ولصوصه، كيف يشقون صدر التيار الجارف، فيما تعوي العاصفة وتصفر الرياح، أو كيف يخترقون الغابة على صهوات الخيول الجامحة، نحو مغامرة جديدة. ويدخل عالم الرومانسية الألمانية، حيث الفرسان المتشردون يضربون في أرجاء الأرض بغير هدى، أو الهياكل العظمية تنطلق من قبورها في الليالي الحالكة، لتتلاقى في معارك ضارية، وتتلاحم في قتال وحشي، أو المغامرون ينطلقون من كل حدب وصوب نحو المخاطر والأهوال، فتصبح المهالك ـ معهم ـ لعباً وتسلية.

وصحبته جدته إلى القوقاز، فيفاجأ بالجبال.

وأسندت مهمة تثقيفه إلى أحد الفرنسيين من أسرى الحرب النابليونية، الذين لم يعودوا إلى بلادهم، «جان كابيه»، ليروي له قصص الحرب الطاحنة، والبطولات الخارقة، وتلاحم الجيوش، والأسلحة المصطبغة بالدم، وأصوات الانفجارات، ورائحة البارود والدماء.

وعاد إلى موسكو، ليلتحق في 1828 بـ«مدرسة النبلاء»، فيكتشف «بوشكين» وقصائده المنسوخة في كراسات الطلبة. وعندما قرأ ملحمة بوشكين، «**أسير القوقاز**»، راح يكتب بدوره أسير القوقاز الخاص به، مستعيراً نفس الموضوع والأشخاص والوزن والتقفية. ولم يلبث أن اكتشف «شيللر» و«جوته» و«هوجو» و«هايني» و«دي فيني». وراح يملأ دفاتره بالكتابة، والمشروعات التي قد تتحقق ـ أو لا تتحقق ـ في المستقبل.

ويدب الصراع بين الجدة والأب عليه. ويطلب منه الأب أن يختار بين الخصمين، فيحار بين واجب العرفان بالجميل للجدة العجوز، وبين محبته واحترامه لأبيه، ولكنه ـ في حمى الصراع ـ يكتشف كل التدابير التي اتخذتها الجدة في سبيل الاحتفاظ به، وحرمان أبيه منه، فيتخذ قراره إلى جانب أبيه، بدلاً من عالم الأفاعي التي يرغمونه على قبوله. وتجن الجدة، وتنفجر بكاء ويأساً وحزنا. ويفقد الشجاعة على تحمل مسؤولية ذلك اليأس الجارف، لتحصل

الجدة بالتوسل والرجاء والدموع، على مالم تنله بالتهديد والوعيد والصراخ. ويبقى الفتى ليرمونتوف إلى جانبها.

وانتقل إلى صخب جامعة موسكو وضجيجها لمدة عامين، ليقرر ــ من بعد ــ الالتحاق بمدرسة الفرسان: «**ها أنذا أصبح محارباً على حين غرة.. لعلها إرادة الله الخاصة! أو لعل هذا الدرب هو أقصر الدروب إطلاقا! وهو إن لم يقدني إلى أول الأهداف، فلعله يؤدي بي إلى آخر غاية من هذا الوجود بأسره: أن أموت، وقد استقرت رصاصة في قلبي**».

(ب)

كانت روسيا ــ في ذلك الحين ــ تموج بالغليان المكتوم، تحت وطأة القمع القيصري الدموي. فقد أيقظت المقاومة الوطنية العنيفة للغزو النابليوني (1812) روح الوطنية والانتماء لدى الشعب الروسي. وكانت الانتفاضات الفلاحية تتتالى، إلى أن بلغت قمتها في انتفاضة «**بوجاتشوف**» قائد الفلاحين والقوزاق والعمال الثائرين، الذي رأى أن «الشعب فقير في كل مكان»، ويتعرض «لكثير من الإهانات والضرائب». فقد تمكنت الانتفاضة من احتلال قلعة «تاتيشيف»، وغيرها من المراكز الحصينة على نهر «يايك»، ومحاصرة قلعة «اورينبورج»، واحتلال مدينتي «زلاتوست» و«كراسنوفيمسك». وشملت الانتفاضة مناطق الفولجا والأورال. ونكل الفلاحون بملاك الأراضي والموظفين ورجال الدين. وهددت الانتفاضة باكتساح مقاطعات البلاد المركزية، فأسرعت الحكومة بعقد صلح مع تركيا ــ التي كانت تخوض ضدها الحرب ــ ووجهت جيشاً كبيراً ضد الانتفاضة. وهُزم «بوجاتشوف» وانكسرت الانتفاضة.

* * *

ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت روسيا تشهد نشاط المنورين الكبيرين، «نوفيكوف» و«راديشيف»، اللذين فضحا نظام القنانة، وطفيلية النبلاء، ودعيا إلى القضاء على عبودية الأقنان والحكم المطلق، وإقامة النظام الجمهوري في روسيا.

وقادت هذه الحركة إلى انتفاضة «**الديسمبريين**» (1825). وفيما كانت الحركات الجماهيرية والفكرية السابقة تمثل بحثاً عن تجاوز الوضع الاجتماعي المتأزم، دون مواجهة مع القيصرية بالعنف المسلح، فإن الديسمبريين كانوا أول الثوريين الروس الذين قاموا بالانتفاضة المسلحة ضد القيصرية بالذات، وطرحوا برنامجاً من أكثر البرامج تقدمية في ذلك الوقت، برنامج ثورة برجوازية، وإصلاح برجوازي لكل النظام الاجتماعي. ونكلت الحكومة

القيصرية بالديسمبريين، بعد هزيمتهم: فحُكم على خمسة منهم بالإعدام، فأُعدموا شنقاً، وحُكم على أكثر من مائة شخص بالأشغال الشاقة والنفي إلى سيبيريا، وجُرد الكثيرون من رتبهم العسكرية، ووضعوا تحت مراقبة البوليس. ولكن دَوِي المدافع في ساحة السينات، كان قد أيقظ الوعي لدى الأجيال الجديدة، بفداحة الحكم المطلق ونظام القنانة.

* * *

ولكن السنوات التالية ـ مباشرة ـ لانتفاضة النبلاء الديسمبريين، كانت سنوات رعب هائل. فقد شدد «**نيقولا الأول**» من قبضة القيصرية البوليسية على كل شيء، حتى الاختناق. كان ـ على ما وصفه «انجلز» ـ رجلاً «يعتبر القسوة نشاطاً والعناد قوة إرادة». وسيطر اليأس العميق والانهيار التام. وبرغم أنه ـ ربما ـ لم يكن ثمة أسرة ارستقراطية إلا وقد تعرض أحد أبنائها للنفي السيبيري، إلا أنها لم تُبد ـ حتى ـ شجاعة ارتداء ملابس الحداد، أو التعبير عن ألمها. وأسرع مجتمع النبلاء باستدراك ما قام به الديسمبريون، فارتفع صخب الحفلات الراقصة، وطقوس العربدة والانحلال، للخلاص من الذكرى الأليمة المؤرقة.

كان عالم فظ، قاس، ينتظر الفتى ليرمونتوف خارج جدران البيت المنقسم على ذاته، عالم متحفز لوأد وسحق كل رغبة أو تطلع يتعارض ـ بأي شكل ـ مع قوانينه. وكان الأمر يحتاج قدرة عقلية هائلة وتصميماً داخلياً صارماً، ليس من أجل الانحناء أمام العاصفة السوداء، وإنما من أجل الشموخ المنتصر، في مواجهة كل الظروف. لقد كان ضرورياً ـ كما يقول «هيرزن» ـ أن يعرف المرء كيف يكره انطلاقاً من الحب، كيف يحتقر انطلاقاً من الشعور العميق بالإنسانية، كيف يمتلكه الكبرياء اللامحدود من أجل أن يرفع رأسه شامخاً، في الوقت الذي ترسف فيه قدماه ومعصماه في الحديد.

وساد زمن من التفاهة والنفاق.

كان زمناً فاصلاً بين زمنين: زمن النبلاء الديسمبريين، وزمن الديمقراطيين الثوريين. وكان السكون والرخاوة بين عاصفتين. وكان الركود بين قلقين عظيمين.

(ج)

كان مقتل «**بوشكين**» ـ في مبارزة تحمل ملامح المؤامرة ـ هو شاهد هذا الزمن الفاصل، فيما كان صعوده ـ كشاعر وظاهرة ثقافية ـ أحد تجليات صحوة روسيا على وعيها الحاد والمفاجئ بعظمتها القومية، في مواجهة جحافل الغزو النابليوني. فبضربة واحدة ـ هي عمق عمر «بوشكين» وأعماله ـ أنجز لروسيا ما أنجزه «دانتي» و«بترارك» لإيطاليا،

وعمالقة القرن السابع عشر لفرنسا، و«ليسينج» و«شيللر» و«جوته» لألمانيا، على ما يقول «لوناتشارسكي»، عن حق. فقبله ــ كما يقرر «بيلينسكي» ــ لم يكن في روسيا مجرد تحسس لما يمكن أن يكون عليه الفن.. كما لم يكن ثمة أدب، مجرد أدب! ولقد كان «بوشكين» مدعوا ليكون كشفاً حياً عن أسرار هذا الأدب في روسيا. وكانت مهمته هي تمهيد الأرض الروسية وإعدادها ــ إلى الأبد ــ لأدب فنّي، بحيث يمتلك الأدب الروسي ــ فيما بعد ــ إمكانية التعبير عن أي اتجاه وأي تأمل، دون أن يخشى الخروج عن مجال الأدب.

وأنجز «بوشكين» مهمته الاستثنائية، على نحو عبقري. وأقام «**نُصباً لم تبنه الأيدي.. ينتصب شاهقاً متحرراً، أكثر سموقاً من نصب الكسندر**». فمعه، تحررت اللغة الأدبية من الرطانة البلاغية القديمة، لتسكنها البساطة، فتختزن آلاف الصور، وتتفجر بالموسيقى والسخونة. وتخرج الأساطير والأغاني والأبطال الشعبيون من ذاكرة الحواري والساحات، لتسكن ــ على يديه ــ الشعر الروسي: أساطير الجنيات، وأغاني الغجر، والفرسان الذين تفور دماؤهم بعشق الحرية والعدالة والحب، والأهواء العارمة التي تسلب الأرواح، فتشعلها فروسية وطموحاً مجنوناً.

يتبدى شعر «بوشكين» انعطافاً مفاجئاً، أو انفجاراً حاداً، في تاريخ الشعر الروسي، برادف الأسطورة، ويتجلى متميزاً لا يشبه شيئاً مما كان قبله، فهو ممثل لشعر جديد لم يكن من قبل موجوداً.

ولذا، فعندما دوت الطلقة القاتلة في صدر «بوشكين»، استيقظت روسيا على الفجيعة، واستعادت مشهد أسراب القوات القيصرية المشاركة في قمع الانتفاضة الديسمبرية، وقوافل المنفيين إلى سيبيريا، والمشنوقين في قلعة بطرس وبولس.

وانتهى عصر، كان «بوشكين» رمزه الشعري، لينفجر ــ مع انفجار الطلقة القاتلة ــ صوت ليرمونتوف مدوياً بالفضيحة، وبافتتاح زمن جديد.

(د)

كانت الفترة التي قضاها ليرمونتوف في مدرسة سلاح الفرسان، هي مدخله إلى المجتمع «الراقي» في العاصمة القيصرية، ذلك المجتمع الذي سرعان ما اكتشف قانونه الخاص: «**لقد رأيت ــ وأنا أدخل إلى هذا العالم ــ أن لكل إنسان قاعدة من ثروة أو اسم أو لقب أو حظوة يستند عليها**». وتسرب الاشمئزاز إليه، فأعلن الحرب على هذا العالم، حتى الموت، حتى موته.

كانت فترة الاكتشاف والاختلاط والأسى: «**واأسفاه! إن زمن أحلامي قد ولّى وانقضى، وزمن الإيمان قد ذهب ولن يعود. إنني في حاجة إلى لذة مادية، إلى سعادة ملموسة، سعادة تُشترى بالذهب، يحملها المرء في جيبه مثلما يحمل علبة لفائفه، سعادة لا تفعل غير خداع حواسي، تاركة نفسي هادئة عاطلة.. لقد تبدلت.. عندما رأيت أحلامي الجميلة تهرب مني، فقلت في نفسي إنها لا تستحق أن يبتدع الإنسان بدلاً منها، واقتنعت أنه من الأفضل أن أتعلم الاستغناء عنها.. ان حياتي لم تكن ـ حتى الآن ـ غير سلسلة من الإخفاقات المتتالية، تحملني على الضحك، الضحك من نفسي، ومن الآخرين على حد سواء. انني لم أفعل سوى ملامسة سائر اللذات، فاشمأزت نفسي منها، دون أن أتمتع بها أبداً**».

وانسربت إلى نفسه السخرية الباردة، «**كالمياه تتسلل إلى جوف مركب محطم**». ومعها، تسللت مشاعر الاحتقار لهذا العالم الفارغ، بل وتحولت إلى ممارسات لامبالية بالقواعد والنظم الاجتماعية للمجتمع القيصري، حتى بدا كما لو كان مغرماً باستفزاز العالم.

واستيقظ ليرمونتوف ـ في يناير 1837 ـ من الاشمئزاز اللامبالي، على صوت الرصاصة الفاجعة، ومصرع الشاعر الكبير. كانت صحوة أليمة، بدت كما لو أيقظت معها الإحساس بمسؤولية العبء العظيم الذي ألقاه موت «بوشكين» على كاهله. فانفجر بالصراخ والاتهام والفضيحة والوعيد. وانفجر بالشعر في قصيدته الهامة «**موت الشاعر**».

تلقفت الأيدي القصيدة منقولة بخط اليد، سرعان ما انتشرت ـ بسرعة الرصاصة القاتلة ـ حتى وصلت نسخة منها إلى يد رئيس البوليس، وأخرى إلى القيصر نفسه. فاعتُقل الشاعر، وحوكم، ثم جُرد من رتبته في الحرس الامبراطوري، ونُفي إلى القوقاز ملحقاً بفرقة الفرسان، التي كانت تشهد حرباً ضارية مع القبائل الجبلية. فلعل رصاصة طائشة، أو ضربة سيف هوجاء، تُسكت هذا الصوت الذي يصر على ازعاج العالم، بعد رحيل «بوشكين».

وحينما تستعيده جدته من القوقاز ـ من خلال علاقاتها الوثيقة برجال القيصرية ـ يجد العاصمة تحتفي به احتفاء متناقضاً: احتفى به أصدقاء «بوشكين»، باعتباره الوريث الشعري له، والذي تحمل الاضطهاد والنفي من أجل الدفاع عنه وفضح قاتليه. واحتفى به مجتمع البلاط والجنرالات والسفراء والسيدات شبه العاريات. ويبدو له هذا المجتمع الأخير مسخاً مشوهاً يبعث على الرعب. فهو يكتشف وراء المجوهرات المتلألئة، والأوسمة البراقة، والابتسامات الشاحبة المصطنعة، فقر القلوب الهائل وخواءها: «.. كل هؤلاء القوم الذين شتمتهم في أشعاري، يتبارون الآن في العطف عليّ وتدليلي». «**لا يوجد في أي مكان**

آخر، ما يوجد هنا من الانحطاط والسخف والرذيلة».

واستعاد ممارساته اللامبالية بقواعد الرياء الارستقراطي، وشهوته باستفزاز دوائر الحكم، وإزعاج الكون المحكوم بالتواطؤ.

وسرعان ما تحرك الجهاز القمعي من جديد، فحَكم عليه مجلس عسكري بتجريده من رتبته ومميزاته الطبقية، ليخفف الحكم ـ من بعد ـ إلى النفي، مرة أخرى، إلى القوقاز، حيث المعارك المحتدمة مع القبائل الجبلية.

وتشدد الدوائر المعادية من إحكام الحصار، وتنصب له الفخاخ، فتشعل من غضب أحد معارفه، ممن كانوا موضع مداعباته، لتتحول الدعابة إلى جرح لكرامته، وعار على شرفه، لا يستحق أقل من المبارزة بالمسدسات.

وتهاوى ليرمونتوف إلى الأرض الجبلية المبتلة، ورصاصة في قلبه، دون أن يكمل السابعة والعشرين.

* * *

(3)

«فَقَدْ يَطْفُو قَاربٌ مُحَطَّمٌ بِلاَ دَفَّة،
بِلاَ شِرَاع،
عَلَى سَطْحِ الْبَحْر
لاَ يَدْرِي الْوِجْهَةَ وَلاَ الْمَصِير»

(أ)

تتبدى الرومانسية واضحة في أعمال ليرمونتوف الأولى (1828 - 1836). كان ليرمونتوف مهموماً بأفكاره الذاتية عن العالم، أكثر مما كان مشغولاً بالواقع الموضوعي. إنه العالم الداخلي للفرد المنعزل الذي يتحدى العالم، على اتساعه. والبطل الشعري، هو ـ إلى حد كبير ـ الأنا الأخرى للشاعر، في شكل أدبي. ولكنها رومانسية تكتسب ـ تدريجياً ـ ملامح ثورية فاعلة، في تماساتها مع روح التقاليد الديسمبرية، وفي تسرب العناصر الواقعية إليها، وخاصة في القصائد الناقدة للمجتمع.

والصوت الرومانسي ليس أحادي البعد؛ إنه مأخوذ بالحلم بالحب الأبدي، والصداقة الخالدة، والحرية. ولكن أشواقه ـ جميعاً ـ لا تتحقق في «وطن السادة والعبيد». فهو محكوم بالعزلة المريرة، والوحدة الموحشة. إنه عدم القبول بالواقع الراهن، والعطش إلى الحياة الكاملة، ودوام الحلم بها، برغم عدم القدرة على تحقيقها.

وفي قصائد المرحلة الواقعية، لم يعد البطل الشعري هو الأنا الأخرى للشاعر، بل «بطل

من هذا الزمان »، ظاهرة من ظواهر الواقع الموضوعي، دون الانتفاء الكلي للملامح الرومانسية.

وهكذا، في تداخل حميم من الرومانسية والواقعية، طارد ليرمونتوف ضالته الشعرية المنشودة، وراء المشاكل الأخلاقية لمصير وحقوق الفرد، وأحياناً، لمصير الشعب والأمة والإنسانية.

(ب)

تصلح قصيدة « **الشراع** » (1832) مدخلاً أول للعالم الشعري عند ليرمونتوف، يفضي إلى قلب العالم، وينطوي على العديد من العناصر التي ستواصل ــ من بعد ــ رحلتها إلى خاتمة القصائد.

ها هنا يبدو الفرار نوعاً من الخلاص، وان اتخذ شكل التأرجح ــ وحيداً ــ على خط الماء. هو خلاص، وفي نفس الوقت: بحث عما ينفي هذا الخلاص، بما هو خلاص قائم على الفرار، إلى الغربة، بعيداً عن الوطن. وهي غربة مرادفة للأنين والألم والوحشة بين أشياء العالم. ولكنها ــ في نفس الوقت ــ شرط العثور على النفي الذي يمنح السكينة والسلام.

يفضي هذا الاغتراب إلى التغرب، بحثاً عما يعيد الالتئام بين الداخل والخارج، ويرأب الصدع الذي انشق. ذلك يشير إلى افتقاد التوافق، إلى التمرد على وضع لا يمنح السكينة ولا السلام، بحثاً عن نفي هذا الوضع، بحثاً عن العاصفة.

تمتد عناصر هذا العالم إلى ما يلي من قصائد، مُشكلة ثوابت متحولة، قد تحتمل الإضافة بلا تناقض ــ دون أن تحتمل الحذف أو الاستبعاد. وخلال هذا الامتداد، تتسع الرؤية وتتعمق، فتتكشف جذور كل عنصر وتشابكها مع جذور العناصر الأخرى.

(جـ)

يصبح الانفصال، المفضي إلى الغربة ــ وسط ضجيج العالم ــ نتيجة لأزمة لوضعية عامة بائسة، تشمل كل شيء. وضعية تقتحم الداخل الإنساني، فتصيبه بالانحطاط والتشوه، وتحيل الملكات الإنسانية إلى زوائد مميتة، تبعث على الاشمئزاز والتقزز، فينحط الإنسان، ويترهل ويُبتذل. وتنطفئ الطاقة والحرارة وتموت.

ولا يتبقى ــ وسط الزحام المختلط الألوان ــ سوى الهمهمات المبتذلة، والوّجوه الجامدة / الأقنعة، التي تتحول إلى أداة حصار، والأيدي الفاترة، والمرح الفارغ، والتفاهات المرحة. لا

يتبقى سوى الوعي الضائع، واللامبالاة بالخير أو الشر، والشيخوخة منذ لحظة الميلاد، والعجز أمام الخطر، وبرودة الروح القاحلة.

عالم كامل من العجز والخواء والتفاهة والركود. ولا شيء. وكل شيء يفتقد المعنى والجدوى، طالما هو محكوم بالإحباط والضياع. فما «جدوى الرغباتُ المحبطة، والتطلعات الضائعة؟». ولماذا الحب والأحاسيس المشبوبة، إذا ما كان للطلاء العذب أن يزول عاجلاً أو آجلاً؟

تصبح الحياة ـ ببساطة ـ «مزحة فارغة، بل ورديئة».

(د)

ويصبح الشاعر أضحوكة ذلك الزمن الميت، حين يفقد الاعتبار بعد مقايضته بالذهب. وتضيع الكلمات الإيقاعية التي كانت تشعل قلوب المحاربين، أو تُسكر كما الخمر، أو تتصاعد كما البخور ساعة الصلاة. يصبح الشاعر زينة بليدة ذهبية معلقة على جدران ذلك العصر الكئيب.

يصبح الشاعر نبياً مهزوماً، يقرأ الحقد في العيون، ويعاني العداوة والهوى المريض. فهو مرصود للرجم والعقاب على كلمته التي أطلقها بينهم، من أجل إصلاح الكون. وتكون مطاردته، بما هو أداة إزعاج للعالم الرتيب التي ينام على العفن. إنه التناقض بين التواطؤ والرفض، بين القائم والقادم. ويجد هذا التناقض حله في نفي الشاعر الذي يهدد بالفضيحة، وشرخ السكون المريح.

فالتهديد بالفضيحة يمتد إلى كل أركان العالم وزواياه، المكشوفة والخبيئة: إلى من حاصروا «بوشكين» العظيم بالأكاذيب والتحريض والتواطؤ، إلى حد القتل، من أطلقوا همهمات الأسف الكسيح على موته، من يحيطون بالعرش في قطعان شرهة إلى ذبح الحرية والعبقرية والمجد، من ينحنون لقوانين هذا العالم، من يكبرون تجاه الشيخوخة في خواء، من ينطوون على العجز والحقد والهوى المريض.

يقف الشاعر في مواجهة ذلك العالم الذليل، بلا مصالحة أو مهانة، مُعرياً سوءاته، وفاضحاً مخازيه، ونازعاً الطلاء عن وجه القبح والفجاجة، وممجداً التمرد والكرامة الإنسانية.

(هـ)

إنها الغربة وسط عالم من العداء المتربص. هي ـ أيضاً ـ الوحدة المنفردة، المرادفة ـ أحياناً ـ لوحدة الرب، وأحياناً ـ لوحدة الشيطان.

إنها الوحدة التي ينتصب فيها المرء مواجهاً قدره ومصيره، ومدافعاً عن حقه في حرية الاختيار، حقه في الرفض، وحقه المطلق في الدفاع عن شرفه الإنساني ضد أعتى القوى.

في ذلك، يمثل التاجر «كالاشنيكوف» (**قصيدة «حكاية القيصر..»**) نموذجاً مضيئاً وحافزاً. وتمثل القصيدة رؤية ذلك العالم القهري، برموزه وعلاقاته المشتبكة، ومصائره التي يجللها الشرف والعار والدم.

تبدو المفارقة ـ أولاً ـ بين عالمين، غير متكافئين أبداً: عالم القيصر، النبلاء والفرسان والحرس والكؤوس الذهبية المترعة بالخمور الآتية مما وراء البحار، وطقوس البهجة والاحتفال بمجد القيصر. ها هنا، لا موضع للحديث عن احتياجات الحياة المادية المرفهة ـ بما هي متحققة بديهياً ـ إلا من قبيل المزاح والتهكم. وها هنا، يكون الانتماء إلى عالم القيصر، انتماء للسلطة العليا القاهرة، والهيمنة التي تصل إلى حد الطغيان، وانتفاء المحرمات، واستباحة الكذب والخديعة، والرغبات المستجابة. ها هنا، تكون المفارقة ـ أو بالتحديد، التناقض ـ مع عالم الشعب: عالم الطبقة الوسطى الشعبية، تجار الأسواق الصغيرة، الذين يجهدون في عرض بضائعهم في إغراء، وعدّ نقودهم في حرص، ودعوة المشترين في لياقة، والحرص المضاعف على تأمين تجارتهم الصغيرة. ها هنا، يمثل الشرف والكرامة الإنسانية القيمة العليا المطلقة. وها هنا، تمثل التقاليد الشعبية النبيلة جوهر الوجود الإنساني. هي ـ هنا ـ مبرر الحياة الكريمة، وما يُبقي قامة الإنسان منتصبة سامقة، في مواجهة كل شيء.

هو الصدام بين عالمين متناقضين، صدام بين الفرد العادي المغمور والقيصرية الهائلة المهولة، التي تشبه قوة كونية عليا.

وليست نتيجة الصدام اللامتكافئ هي المحور المركزي، بل هو الصدام ذاته، وصيرورته الداخلية. فاعتداء حارس القيصر على زوجة التاجر، لا تقل فداحته عن فداحة العار والانتهاك. إنها الفداحة ـ ذاتها ـ التي لا تتأثر، بل ربما تضاعفت، بالعلاقة بين الجاني والقيصر. فليس ثمة مجال لأي تردد من التاجر في اتخاذ الموقف الملائم: الانتقام من حارس القيصر، حتى الموت، أمام عيني القيصر نفسه. وليس ثمة مجال لأي تردد من الشقيقين اللذين هرعا إلى أخيهما المنكوب. إنه الدفاع عن الشرف الإنساني، حتى الموت، وعلى رؤوس الأشهاد، بديلاً عن التسلل خفية في الظلام.

وإذ يتحقق الانتقام الواجب، إذ تتحقق استعادة الشرف، تكتمل دوائر الحياة، وتتحقق غايتها الأولى. وتكون شجاعة مواجهة الموت ـ بالحكم القيصري ـ مرادفة لشجاعة الانتقام

والمواجهة، وتأكيداً ــ في نفس الوقت ــ على استكمال دائرة الحياة، باستعادة الشرف الضائع.

(و)

تنتشر العناصر التراثية الشعبية في القصيدة، لتشكل ملامحها الرئيسية، وتصنع مناخها العام. إنها عناصر الحكاية الشعبية: الراوي، الذي «**يَحْكِي عَلَى الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَة**»، في الاحتفال الذي أقامه أحد النبلاء، «**لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَثَلَاثِ لَيَال**». هو الراوي الذي يصف المشهد، ويطلق الأحكام ــ بحذر ــ على الأشخاص، وينقل الحوار، ويكتشف ــ ويكشف ــ الخديعة منذ بدايتها، ويشي بالأحداث القادمة في استخفاء، ويتبنى الموقف الذي يراه صحيحاً، متقفاً مع روح التقاليد الشعبية.

وينكسر الإيهام بالواقع، في التقديم الذي يمهد به الراوي للحكاية، وفي تدخله في سياق السرد للتعليق الخارجي على الحدث، وتوجهه بالحديث إلى أعضاء فرقته، وأحياناً إلى شخوص الحكاية. ويكون التكرار ضرورة فنية في الحكي الشفاهي: تكرار المقطع الذي يختتم به كل جزء، وتكرار بيت شعري معين في المواقف والمواضع المتشابهة، وتكرار كلمة ــ أو بضع كلمات متراوحة ــ داخل الصورة الشعرية (**تَأَوَّهَ الْحَارِسُ الشَّابُ فِي ضَعْف، / تَرَنَّحَ وَسَقَطَ إِلَى الأَرْضِ الْجَلِيدِيَّة، / إِلَى الأَرْضِ الْجَلِيدِيَّة، كَصَنوبرَةٍ، سَقَط/ كَصنوبرَةٍ هَزِيلَةٍ فِي بُسْتَانٍ شِتَائِي.. / إِلَى الأَرْضِ سَقَطَ، وَارْتَمَى هُنَاكَ، مَيِّتا**).

هي ــ أيضاً ــ عناصر القيم الشعبية: الدفاع عن الشرف الإنساني، ورفعه إلى مستوى الندية مع الصولجان القيصري، وازدراء الخديعة والكذب، واحترام العلاقات الشرعية ــ اجتماعياً ــ بما يصل إلى حد التقديس: علاقات الزوجية، ومرادفة الانتهاك بالموت، أو استحقاقه، واحترام الأمانة، وتقديس علاقات الدم الأخوية، حتى وإن أفضت إلى «حفل ملطخ بالدم».

وأيضاً، هي عناصر التصور الشعبي للسلطة العليا، التي تتداخلها الخديعة والزيف، ويصبح اكتمال لهوها ومرحها مشروطاً بانتهاك شرف الآخرين، بلامبالاة. هي فظاظة القسوة، التي تتخذ شكل العدل الأبوي الصارم، وتزيينها بالبهرجة الفجة. ويصبح الشعب ــ بذلك ــ محاصراً بلهو القيصرية الصاخب، وسيفها الصارم، في آن.

وينتفي المناخ الرومانسي من القصيدة، إذ تستمد عناصر مناخها من الاحتفال القيصري، والسوق، وبيت التاجر، واحتفال الملاكمة، ومشهد الإعدام، عبر شوارع وساحات موسكو، ونهر الموسكوفا المتجمد. يبرز مناخ «واقعي» يقوم على آلياتِ المواقف الاجتماعية

المختلفة، وحركة الأشخاص داخل هذه المواقف. وتتكيف الصورة الشعرية، لتصبح تعبيراً عن واقع العلاقات القائمة، لا عن الواقع النفسي للبطل الرومانسي، وعن حركة الأحداث والجموع والمناخ الكلي العام. فليس ثمة بطل فردي متفرد، وإنما ثمة أبطال محكومون ــ في حركتهم ــ بملامح وواقع اجتماعي سياسي واجتماعي تاريخي. وتصبح صورة العناصر الطبيعية انعكاساً ــ لا للموقف الشعوري الفردي الداخلي ــ وإنما لجوهر هذا الواقع الاجتماعي (**رَدَّ الشَّقِيقَانِ قَائِلَيْنِ : / « أَيْنَمَا تَهُبُّ الرِّيَاحُ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلاَ، تَنْدَفِعُ الْغُيُومُ مُطِيعَةً مُسْرِعَةً. / وَعِنْدَمَا يُنَادِي الصَّقْرُ الأَزْرَقُ الْجَنَاحِ بِصَرْخَةٍ خَشِنَةٍ / عَلَى صِغَارِهِ إِلَى حَيْثُ يَرْقُدُ الْقَتِيلُ فِي الْحَقْلِ، / عِنْدَمَا يَجْمَعُهُمْ إِلَى حَقْلٍ مُلَطَّخٍ بِالدَّمِ، / فَعَلَى نِدَائِهِ يَأْتُونَ بِلاَ إِبْطَاءٍ. / وَأَنْتَ أَبٌ أَمِينٌ لَنَا، يَا أَخَانَا الْعَزِيزُ، / فَلَكَ الأَمْرُ، وَعَلَيْنَا التَّنْفِيذُ.. »**).

إنها قصيدة تمثل ــ بعمق ــ أحد الملامح البارزة للشعر الروسي، في النصف الأول من القرن التاسع عشر: الاحتفاء بالإنسان العادي المغمور، ورفعه إلى مصاف البطولة السامقة، ليزاحم الأبطال التقليديين، ممن تستند بطولتهم على وضعهم الطبقي الرفيع، وعلاقتهم المتميزة بالتاج القيصري. بل انه يفوقهم ــ في حقيقة الأمر ــ بطولة، فيما تستند بطولته على داخله هو، وليس على الخارج، فيما يواجه الخارج العدائي ــ غالباً ــ عارياً، إلا من طاقاته الذاتية الكامنة، لا من طاقات مستعارة.

(ز)

تمثل قصيدة « **الشيطان** » وجهاً آخر من وجوه العالم الشعري لليرمونتوف المتعددة. فهي تكثف وتلم تلك الملامح المتناثرة في قصائده القصيرة، لتصل بها إلى عالم كلي كامل، لا يصبح حاصل جمعها، وإنما حاصل جدلها وتعميقها وتطويرها، بالمعنى الشامل. هي ــ بمعنى آخر ــ رؤية شاملة للوجود العام، والإنسان، والسلطة، والطبيعة، والحب، والكراهية، والرضوخ، والتمرد، والملل، والتحفز، والجدوى، والعبثية، والتوهج، والانطفاء. رؤية الأركان وزوايا العالم الداخلي والخارجي معاً، وصفاء وامتداد للصوت الذي تردد متقطعاً، مختلطاً، في القصائد السابقة. وخلف قناع الشيطان، تتصاعد التساؤلات حول كل شيء: الأنظمة السياسية، والأخلاق، والدين، ومغزى التاريخ. هي محاكمة عصر بأكمله، بعاره، وأحقاده، وأحلامه، فيما يرمي الديسمبريون بظلالهم على مناخ القصيدة، منذ أول بيت إلى الأخير.

فاختيار رمز « الشيطان » ــ ذلك الرمز التقليدي في الأدب الأوروبي في القرن الثامن عشر ــ يمنح الشاعر، مقدماً، إمكانية التعبير عن التمرد والرفض، وتحدي القوى العظمى، بما

ينطوي عليه هذا الرمز ــ أصلاً ــ من ملامح تراثية أسطورية، متكونة سلفاً. إنه ــ بداءة ــ كلمة «لا» الصارخة في وجه الرب، تحدياً، واعتداداً بالذات، واختيار النفي الأبدي عن الخضوع.

ولا يتناقض «شيطان» القصيدة مع هذه الملامح العامة، ولكنه ــ أيضاً ــ لا يكتفي بها. فهو ينطلق منها إلى غابة من التناقضات المتشابكة المعقدة: فهو مطارد بالشك واللعنات ومرارة النفي العقيم، محكوم بـ«**مُهِمَّةٍ كَئِيبَةٍ دُونَ غُفْرَان، خَالِيَةٍ مِنَ الإِثَارَةِ وَالْمُوَاجَهَة**»، مفعم بالحسد والكراهية والازدراء البارد، ولكنه يهفو إلى الغفران، مستعداً للتخلي عن نواياه الوحشية. إنه الحب ما يُوثقه إلى العبودية للمرة الأولى، ليصبح تحوله إمكانية قائمة. هو «**سَيِّدُ الْمَعْرِفَةِ وَالْحُرِّيَّة**»، ولكنها معرفة العدم، وحرية المطارد، الذي يهفو إلى الماضي الآمن. إنه البرود الذي أصاب كل الحماسات الفطرية، إلى حد اليأس. «**قَارِبٌ مُحَطَّمٌ بِلاَ دَقَّةٍ، بِلاَ شِرَاعٍ، يَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْبَحْرِ، لاَ يَدْرِي الْوِجْهَةَ وَلاَ الْمَصِير**». ولكنه ينذر نفسه ــ تحدياً ــ لغرس الخطيئة ونشر الشك في كل الأشياء الجميلة والنبيلة. هو الانتصار بلا هدف، والكبرياء التي تجر اللعنة، والامتلاك المرادف للفقد، والقوة التي تختلط بإرادة الهدم، والعذاب اللانهائي الباحث عن الخلاص، والهزيمة الأبدية ــ بلا حب ولا أمل ــ عبر فراغ العالم.

(ح)

و«**تمارا**» ــ في القصيدة ــ هي النقيض غير المكتمل لـ«**الشيطان**». وهذا التناقض هو مصدر ما يستشعره الشيطان إزاءها من إغراء لا يقاوم. هي تفجر الحياة، والفرح، والعفوية. هي البساطة الطفولية، المتصالحة مع العالم. ولكنها ــ أيضاً ــ التمرد الكامن خلف الرضى بعبودية الحريم، والامتثال ــ من بعد ــ لنظام الدير الصارم. ولكن الرضى والامتثال ــ في نفس الوقت ــ حقيقيان. إنهما انسحاب ورضوخ، يفضيان إلى الخروج من العالم، إلى العزلة، فالموت. هكذا ــ أيضاً ــ كان إغواء الشيطان لها بالانسحاب عن العالم الأرضي، مرادفاً ومفضياً ــ في نفس الوقت ــ للموت. فقد تمثل وجودها في عمليات هروب متتالية ــ دون مواجهة ــ لا تنتهي إلا بالموت: إنه الهروب من الحرية إلى عبودية الحريم، فالهروب من مواجهة الحياة إلى الدير، فالهروب من نظام الدير الصارم إلى الموت. ولكن موتها كان ــ في نفس الوقت، أيضاً ــ نتيجة لسهولة إغوائها بالوعود الشيطانية المستحيلة، بالفراغ واللاجدوى والمطلق العبثي، والمعرفة الهدامة. كان الحلم بالإمساك بهذه الوعود، وكانت استحالة تحقيق الشيطان للحلم، وكان عجزها عن الصمود من أجل تحقق الحلم، فكان الموت.

فقبلة الشيطان كانت وسيلته ليكشف لها ــ في آن ــ عن الرغبة، والمطلق، والمعرفة العليا. هي الكشف عن العدم، ولا جدوى كافة الجهود والمعتقدات الإنسانية، وعبثية الحياة. وهي محاولة أن يجعلها شريكاً له في اللانهائي والمطلق. ولكن القُبلة ــ التي كانت تنطوي على عملية تحويل كامل لها ــ انطوت على تحولها إلى الموت، إذ رأت ــ من خلالها ــ الهاوية.

(ط)

تمثل الجغرافيا القوقازية طرفاً أصيلاً في تكوين عالم القصيدة. هي ليست مجرد الإطار المكاني للحركة، ولكنها أحد العوامل «الواقعية» التي تشد القصيدة إلى العالم العياني، فلا تفلتها خيالاً رومانسياً كلياً. فعناصر المكان الجغرافية محددة بدقة طبيعية: جبلا «كازبيك» و«القوقاز»، ومضيق «داريال»، حيث يندفع نهر «التيريك» من الجنوب إلى الشمال، خلال المنحدرات البحرية، والوديان الخصيبة الممتدة، وأشجار الحور، والجداول، ونهر «أراجفا»، الذي ينتصب على نتوء منه قصر «تمارا»، ليمتد منه درج منحدر إلى ماء النهر، ووادي «كويشور» الذي يستلقي عند أقدام «كازبيك».

وتنسرب طقوس الحياة القوقازية من الجغرافيا، لتتخلل القصيدة، فتشكل عمقها الخفي. إنها مراسيم احتفال الزفاف: الخمر والطعام والغناء والرقص والتصفيق واللهو البريء. هي إغارات الجورجيين على القوافل العابرة. هي الممارسات الصغيرة لحياة الدير الداخلية. وهي طقوس الموت ورحلة الدفن الطويلة. هي الاحتفاء بالتفاصيل الصغيرة للمناسبات الإنسانية، فلا يصبح الإنسان تجريداً أو تهويماً، أو تعميماً، وإنما وجوداً حياً ينغرس ــ بعمق ــ في التاريخ والجغرافيا.

(ي)

من العسير دمغ قصيدة «**الشيطان**» بكلمة واحدة: روائية، غنائية، تأملية، رومانسية، واقعية، ملحمية. ولكن، من السهل أن نعترف بمدى الاتساع الهائل للتعبير في القصيدة، وانطوائها على العديد من الأشكال والمستويات البنائية المختلفة.

من السهل أن نعترف بإحكام وتوازن البناء الشعري. فهي تنقسم إلى جزئين، يضم كل منهما 16 مقطعاً. يبدأ العمل بالتحليق الحزين للشيطان الطريد، لينتهي برؤية حول الوحدة والوحشة والهزيمة الأبدية. فبداية العمل هي نهاية رحلة سابقة للشيطان، ونهايته هي نهاية رحلة أخرى له، تمتد طول العمل. أما «تمارا»، فيأتي دخولها إلى الجزء الأول استعداداً لرحلة، يمثل الفرح شارتها الأولى، لتفتتح الجزء الثاني بالبكاء، شارة أولى على رحلة أخرى

نقيضة. وهي ــ في الجزء الأول ــ وجه الحرية والفرح والبراءة، فيما تصبح ــ في الثاني ــ وجه العزلة والعجز.

ويتمحور كل جزء حول مشهدين رئيسيين: مشهد الغواية (غواية تمارا للشيطان في الأول، وغواية الشيطان لتمارا في الثاني)، ومشهد الموت (موت الخطيب في الأول، وموت تمارا في الثاني). فالغواية والموت هما الباعثان المسيطران على البناء المعماري للقصيدة. هو التناقض بين الحياة والموت: بين حفل الزفاف وموت الخطيب، بين التشوف المغوي لاكتشاف عالم آخر والقبلة القاتلة، بين ذكريات الفردوس المفقود والفراغ والضجر والاحتقار، بين الطموح لاستعادة السلام والرضوخ لأبدية الهزيمة.

تخضع القصيدة لشبكة معقدة من التوازيات والتوازنات والتناقضات، لتختلط فيها الغنائية بالملحمية بالخطابية بالتأملية، تختلط الرومانسية بالواقعية، ليتشكل عالم متعدد الأبعاد والمستويات والأعماق.

(ك)

ويكتمل العالم الشعري عند ليرمونتوف، مع آخر قصائده، مكوناً وحدة منسجمة، رغم تعدد الأبعاد، لا تشوبها التناقضات أو التحولات الحادة والمفاجئة. ربما ساعد على ذلك، قصر عمر الشاعر (أقل من سبعة وعشرين عاماً)، ووحدة المرحلة التاريخية التي عاشها، والتي اتسمت بركود اجتماعي سياسي.

ولكن هذه الوحدة المنسجمة للعالم الشعري، لا تعني ــ من ناحية ــ انسجاماً مع العالم خارج القصيدة، ولكنه الانسجام المضاد لانسجام العالم الخارجي. انسجام التناقض مع الخارج. فانسجام العالم الشعري ــ هنا ــ انسجام داخلي، قائم على تكامل الأبعاد الشعرية، شعرياً، وتوافقاتها الداخلية. فلا تضاد أو تضارب داخلياً، ولا تناقض بنيوياً، وإنما يكمن ذلك التضاد والتضارب والتناقض ــ فحسب ــ في العلاقة مع الخارج، مع العالم. لا تصبح القصيدة ــ بأي معنى ــ توافقاً مع العالم القائم، أو انسجاماً معه، وإنما تصبح تضاداً ــ بكل معنى ــ معه، وعلى كل المستويات.

ولا تعني هذه الوحدة المنسجمة للعالم الشعري ــ من ناحية أخرى ــ أحادية العالم، أو سكونيته، ولكنه انسجام الأبعاد المتعددة في وحدة، انسجام العناصر والأبنية في بنية كلية واحدة شاملة. هو ــ في نفس الوقت ــ انسجام التطور الشعري، وتعميق وتوسيع البذور الأولى ــ في كل اتجاه ــ دون تشتت، أو بعثرة، أو تحول مفاجئ. ليس ثمة نفي في المسيرة

الشعرية، بل تأكيد وتعميق وإضافة. فالعناصر التي قامت عليها القصائد الأولى المبكرة، تقوم عليها ـ أيضاً ـ القصائد الأخيرة، ولكنها تخضع لتحول خاص: تتعدد أبعاد العنصر الواحد، ويتعمق، ويشتبك في علاقة جديدة مع العناصر المتعددة الأخرى، المتعددة الأبعاد. ويتكشف العالم الشعري عن أبعاد وعناصر جديدة، تدخل البنية القائمة المتحولة، وتتداخل مع ثوابتها المتغيرة، ليتشكل العالم الكلي الواحد في تحولاته الداخلية الخاصة.

ومع اكتمال العالم الشعري لليرمونتوف، تتبدى مسيرته ودوره ـ في الأدب الروسي ـ واضحين: إنه الصوت الذي تشتبك فيه الرومانسية بالواقعية، اشتباكاً حميماً، يفضي ـ بعده ـ إلى الانتقالة الواقعية الكبرى في الأدب الروسي. وهو الصوت الذي حمل البذور الأولى للرمزية في الشعر الروسي، إلى حد ان اعتبرته المدرسة الرمزية الروسية ـ أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي ـ نبيها العظيم. وهو الصوت الذي انتشر في تضاعيف الشعر الروسي ـ طوال النصف الثاني من القرن الماضي ـ كراهية للانحطاط الروحي، وهجاء مُراً للابتذال، وسخطاً على السلبية الذليلة، وعطشاً إلى التحقق الإنساني الحقيقي والكامل.

هو صوت الرفض من أجل قبول الحقيقي، وصوت الهدم من أجل بناء الحقيقي، وصوت النفي من أجل إثبات الحقيقي.

(ل)

يمكننا أن نتكشف التمايز الأولي بين عالمي ليرمونتوف وبوشكين، من خلال استقراء مقارن ـ وإن يكن عابراً ـ بين قصيدتي «**النبي**» و«**حكاية القيصر..**» للأول، وبين «**النبي**» و«**الفارس البرونزي**» للثاني، مع الحذر الواجب من الوقوع في فخ المفاضلة.

فالنبي ـ لديهما، معاً ـ هو محور قصيدتيهما. هو ـ بمعنى ما ـ الشاعر. تستهلك قصيدة بوشكين نفسها في الكيفية التي يتحقق بها النبي / الشاعر، نبياً / شاعراً، من خلال «ساروفيم» الملاك، الذي يشق الصدر، ويقتلع القلب، ويغرس مكانه جمرة. فالنبي / الشاعر ـ هنا ـ ليس فاعلاً، ولكنه مفعول به، كمقدمة لأن يصبح فاعلاً، خارج القصيدة. والعلاقة القائمة تنحصر فيما يجري بين الملاك وبينه، توطئة لعلاقة أخرى ـ خارج القصيدة، أيضاً ـ بينه وبين العالم الخارجي، تقوم على التبشير بـ«كلمة الحق». هي ـ بمعنى ما ـ حيثيات شرعية النبوة الفاعلة على الأرض. وهي ـ بمعنى ما ـ إكبار حماسي للدور والمهمة والمسؤولية، يليق بالزمن الديسمبري، الذي كان بوشكين صوته الشعري.

وتختلف قصيدة ليرمونتوف اختلافاً كبيراً. فهي ـ بداية ـ تعبُر، في سطر واحد، كيفية تحقق النبي / الشاعر، نبياً / شاعراً، لتصبح العلاقة بينه وبين العالم هي المحور المركزي

الشامل. وهي علاقة مركبة، تنطوي على الفعل ورد الفعل ورد رد الفعل. إنها سلسلة من الأفعال المتبادلة، التي يتولد بعضها عن البعض الآخر. وهي علاقة محتدمة، منذ بدايتها وحتى منتهاها. فمنذ إشهار النبوة ــ في السطر الأول ــ يبدأ التناقض مع العالم الراكد. إنه الحقد والمطاردة والرجم والمطاردة إلى الصحراء، للنبي الذي أزعج سُكون الكون الخامد. يتحقق فعل النبي / الشاعر داخل القصيدة، ولكنه فعل محكوم بمواجهة العداء والازدراء. إنه ــ بمعنى ما ــ حيثيات لا جدوى النبوة على الأرض. وهو ــ بمعنى ما ــ الأسى على استنامة العالم إلى الخمود المرادف للموت، بما يليق بزمن الانحطاط السياسي والمعنوي التالي لقمع الحركة الديسمبرية، والذي كان ليرمونتوف صوته الشعري.

وتضيف المقارنة بين «الفارس البرونزي» لبوشكين، و«حكاية القيصر..» لليرمونتوف، ملمحاً آخر للتمايز بينهما، دون امتياز. فكلاهما، مواجهة الشخص العادي المغمور لسلطان القيصرية، ممثلاً في القيصر ذاته. ولكن القيصر بوشكين، هو تمثال مخيف يعتلي حصاناً برونزياً، يُحلق في مهابة. فالمواجهة تقوم ــ إذن ــ بين «يفجيني»، الموظف الصغير، الذي يقوده العجز عن تحقيق أحلامه المتواضعة وانفلات الطبيعة من قيودها، إلى ما يشبه الجنون، وبين التمثال الذي ينتصب شاهقاً، متحدياً الجميع: الطبيعة، والموظف الصغير، وأحلامه المتواضعة، والخراب الشامل، والألم الإنساني. ولكنها المواجهة القصيرة العابرة، التي تنتهي بفرار «يفجيني» المرعوب خلال الليل، وهو يسمع وقع حوافر الحصان تطارده في سباق مخيف، ينتهي بموت الموظف البائس ــ مجنوناً، تماماً ــ في جزيرة مهجورة.

يتحقق التمرد ــ لدى بوشكين ــ بصورة شبه رمزية، منصباً على تمثال «بطرس الأكبر». ولا شهود سوى عناصر الطبيعة الثائرة. ولكنه ــ أيضاً. التمرد، المحكوم مسبقاً، بالفشل، حيث هشاشة البناء الداخلي للمتمرد، التي تتبدى واضحة منذ خطوته الأولى في القصيدة، وحيث تصل فردية التمرد إلى الحد الأقصى، الذي يقارب الجنون. هو ــ بمعني ما ــ شارة على انسداد طريق.

ولكن القيصر ــ لدى ليرمونتوف ــ هو القيصر ذاته. وهي المواجهة بين التاجر الصغير، المنتهك الشرف على يد أحد حراس القيصر، وبين القيصر، درع الحارس الوقح. هي مواجهة محسوبة ومقدرة من جانب التاجر، باعتبارها السبيل الوحيد لاستعادة الكرامة الضائعة. ومصرعة ــ على يد القيصر ــ ليس مرادفاً لمصرع بطل بوشكين، بل هو الموت المرادف لانتصار إرادة التحدي، هو الموت الذي يستحق الإنشاد والغناء، لا الشفقة والرثاء.

والتمرد ــ لدى ليرمونتوف ــ متحقق بكيفياته الواقعية التفصيلية. والشهود يبتدئون بنهر الموسكوفا المتجمد، إلى حراس القيصر والنبلاء، إلى أشقاء التاجر، إلى الجماهير الغفيرة.

وإذا كان التمرد ـ منذ شاراته الأولى ـ محكوماً بموت التاجر، كنتيجة منطقية لعدم تكافؤ القوى، إلا انه ـ منذ شاراته الأولى، أيضاً ـ يبدو ضرورة حتمية أولى لاستعادة الشرف الإنساني. فها هنا، لا يبدو المصير الأخير للمتمرد هو الفيصل في الحكم، ولكن التمرد ذاته، دون نظر إلى نتيجته الأخيرة. بل ان النتيجة الأخيرة الحقيقية تتحول ـ في السياق ـ لتصبح هي نجاح التاجر في استعادة شرفه الضائع، لا مصرعه القيصري، الذي يتحول ـ في السياق ـ ليصبح محض استكمال للدائرة.

ويستند نجاح هذا التمرد الفردي ـ نسبياً ـ على التماسك الداخلي لشخصية المتمرد، ووجود قضية ما تحفز على التمرد، وإيمانه البديهي بضرورة الخروج، وعلى استناده على بناء اجتماعي قائم (التقاليد الاجتماعية موضع الاحترام، وعلاقات الأخوة). إنها فردية مؤسسة اجتماعياً وفكرياً، لا الفردية القائمة على الهوى الجامح، الذي يخالطه الجنون.

نقول ـ ها هنا ـ بالتمايز بين بوشكين وليرمونتوف، ولا نقول بامتياز أحدهما. فهما وجهان لرحلة شعرية واحدة، طبعاها بطابعهما المزدوج، فيما يمثل ليرمونتوف ـ من ناحية أخرى ـ استكمالاً وتطويراً لما كان بوشكين قد بدأه. وهما ـ معاً ـ يمثلان الفجر الحقيقي المضيء للشعر الروسي.

القاهرة
الجمعة: 17 مايو 1985

القصائد

لست بايرون

لاَ .. لَسْتُ بَايْرُون ـ
مِنْ طرَازٍ آخَرٍ أَنَا
اصْطَفَانِيَ الْقَدَرُ، لَكِنِّي لاَ أَزَالُ مَغْمُورا،
مُشَرَّدٌ مِثْلُهُ، وَطَرِيدٌ مِنَ الْوَطَن
لَكِنْ رُوسِيٌّ أَنَا ـ قَلْباً وَعَقْلا.

ابْتَدَأْتُ مُبَكِّراً، وَسَأَنْتَهِي مُبَكِّرا
لَكِنَّ إِنْجَازِي سيكون ضئيلاً ...
وَالأَحْلاَمُ الْمُحَطَّمَةُ سَوْفَ تَرْقُدُ فِي أَعْمَاقِ رُوحِي
كَمَا الشُّمُوس الغَارِقَةِ فِي الْبَحْر.

فَمَنْ، أَيَّتُهَا الأَعْمَاقُ الْبَحْرِيَّةُ الْمُظْلِمَة،
ذَلِكَ الَّذِي رَوَى أَسْرَارَك الغَامِضَة؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ ـ إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَحَد ـ
أَنْ يَنْشُرَ أَفْكَارِي فِي الجُمُوع؟
إِنَّهُ أَنَا، أَوِ الرَّبُّ، أَوْ لاَ أَحَد.

– 1832 –

الشحاذ

بِجوارِ بَوَّابَةِ كَنِيسَة،
وَقَفَ رَجُلٌ عَجُوزٌ مُتَغَضِّنٌ يَلْتَمِسُ الصَّدَقَاتِ بِلاَ جَدْوَى.
يُوشِكُ عَلَى الْمَوْتِ مِنَ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ وَالْعَطَش،
وَلَكِنَّه يَقِفُ بِلاَ مُبَالاة.

كُل مَا كَانَ يُرِيدُه: بَعض الْخُبز،
وَفِي عَيْنَيْهِ الْيَأْسُ وَالأَلَم..
لَكِنْ لاَ ـ فَقَدْ كَانَ الصَّخْرُ هُوَ مَا يُلْقَى إليه...
وَهَكَذَا يَنَالُنِي الضَّنَى.

فَمِنْ أَجْلِ حُبِّي لَكِ، أَتَسَوَّلُ دَامِعا
حُبَّكِ لِي، وَأَنَا مُفْعَمٌ بِالشَّوقِ الْعَلِيل،
وَلَكِنَّكِ، إِذْ تَرْفُضِينَ تَوسُّلاَتِي فِي ازْدِرَاءٍ بَارِد،
تَخُونِينَنِي، وَتَخُونِينَ حُبِّي.

– 1830 –

أمنية

لِمَاذَا لَمْ أَكُن طَائِراً ؟ لِمَاذَا

لَمْ أَكُنْ غُراباً أَسْوَدَ يُبْحِرُ فِي السَّمَاء ؟

لِمَاذَا لاَ أَسْتَطِيعُ التَّحْلِيقَ فَوْقَ الأَرْضِ وَالْبِحَار؟

وَلِمَاذَا لَمْ أَكُنْ غُرَاباً ، حُرّاً ؟

فَبَعِيداً ، بَعِيداً إِلَى الْغَرْبِ أَطِير،

حَيْثُ يَمْتَدُّ وَطَنُ أَسْلاَفِي ،

حَيْثُ التِّلالُ تَخْتَفِي فِي الضَّبَابِ فَتَخْتَفِي قَلْعَتُهُم الصَّخْرِيَّة ،

وَعِظَامُهُم تَرقُدُ مَنْسِيَّةً وَمَجْهُولَة .

فِي تِلْكَ الْقَلْعَةِ يَصْدَأ سَيْفٌ وَدِرْع ،

وَتُدْرِكُهُمَا الشَّيخُوخَةُ مَعَ الزَّمَنِ وَالْغُبَار.

فَأَلْتَصِقُ ـ كَطَائِرٍ ـ بِالْجِدَارِ الَّذِي يَحْمِلُهُمَا

وَأَمْسَحُ بِجَنَاحَيَّ عَنْهُمَا الْغُبَار.

هُنَاكَ يَقِفُ قِيثَارٌ قَدِيمٌ فِي الْقَاعَةِ الرَّحِيبَةِ الْخَاوِيَة ،

سَاكِناً وَصَامِتاً يَسْتَنِدُ إِلَى الْجِدَار.

فَأَلْمَسُ بِجَنَاحَيَّ ذَلِكَ القِيثَارَ الاسْكُتْلَنْدِيَّ الْقَدِيم
فَيَصْحُو ــ يَصْحُو وَيُغَنِّي.

. بَعِيداً، أَيَّتُهَا الأَحْلام العَبَثِيَّة! أَيَّتُهَا الأَشْواقُ الْعَبَثِيَّةُ، بَعِيدا!
فَقد افْتَرقْتُ عَنْ وَطَنِي إِلَى الأَبَد.
وَبَيْنِي وَبَيْنَ وَطَنِي تَمْتَدُّ بِحَارٌ عَاصِفَة،
وَمَصِيرٌ لاَ يَلِينُ أَمَامَ تَوسُّلاَتي.

وُلِدْتُ هُنَا، وَسْطَ الثُّلُوجِ، مُنْعَزِلاً عَنْ أَقَارِبي،
وَأَنَا غَرِيبٌ حَتَّى الْقَلْبِ عَن هَذِهِ السُّهُول.
إِنَّنِي ابْنُ قَبِيلَةٍ مُقَاتِلَةٍ عَظِيمَةٍ، فَلِمَاذَا
لَمْ أَكُن غُرَاباً أَسْوَدَ يُبْحِرُ فِي السَّمَاء؟

– 1831 –

الشــــراع

شِرَاعٌ أَبْيَض وَحِيدٌ يَبِينُ لِلَحْظَة
حَيْثُ يُومِضُ الْبَحْرُ، خَطًّا آزُورِيا.
فَمَا الَّذِي قَادَه بَعِيداً عَن وَطَنِه؟
وَعَمَّ يَبْحَثُ فِي الْمَنَاطِقِ الْغَرِيبَة؟
الأَمْوَاجُ تَتَلاعَبُ، وَالصَّارِي يَلْتَوِي، وَهُوَ يُصْدِرُ الصَّرِير،
وَالرِّيحُ، نَافِدَةَ الصَّبْرِ، تَئِنُّ وَتَتَنَهَّد...
لَيْسَ الْفَرحُ مَا يَبْحَثُ عَنْه،
وَلاَ هُوَ يَفِرُّ مِنْ السَّعَادَة.
الأَمْواجُ الزّرقَاءُ تَتَرَاقَصُ، تَتَراقَصُ وَتَرتَعِش،
وَالأَشِعَّةُ السَّاطِعَةُ لِلشَّمْسِ تَحْنُو عَلَى الْبِحَار.
وَلَكِنَّه، ذَلِكَ الْمُتمرِّد، يَسْتَجْدِي الْعَاصِفَة،
كَمَا لَوْ فِي الْعَاصِفَةِ تَكْمُنُ السَّكِينَةُ وَالسَّلاَم!...

- 1832 -

السجين

حَطِّمْ قُيُودِي، وَافْتَحْ زِنْزَانَتِي،
دَعْنِي أَرَى ضَوْءَ النَّهَار،
هَاتِ لِي الْفَتَاةَ سَوْدَاءَ الْعَيْنَيْن
والفَرَسَ أَسْوَدَ الْعُرْفِ،
لأُقَبِّلَ الْفَتَاةَ ــ بِرِقَّة،
ثُمَّ أَثِبُ عَلَى ظَهْرِ الْفَرَسِ سَرِيعا،
وَمَعَ الصَّيْحَةِ والصَّرْخَة،
أَنْطَلِقُ عَبْرَ السَّهْلِ الأَخْضَر كَمَا الرِّيَاح.

مُعْتِمٌ سِجْنِي وَكَئِيب
وَالْبَابُ مُوصَدٌ وَمُحْكَمُ الْمِزْلاَج.
حَزِينَةً تَجْلِسُ الْفَتَاةُ فِي غُرفَتِهَا،
نَائِيَةً عَمَّن أَحَبَّهَا،
وَفَرَسِي النَّبِيلُ بِلا لِجَام
يَهِيمُ مُتَكَاسِلاً فِي الْحَقْلِ الأَخْضَر
أَوْ أَعْلَى الْوَادِي وَأَسْفَلَ التّل،

يَخبُّ كَمَا يَحْلُو لَه، وَرَأسُه شَامِخَة.

وَحِيدٌ أَنَا،
وَقَاسٍ قَدَرِي:
عَلَى الجُدْرَانِ الصَّخْرِيَّةِ الْعَارِيَة
يَتَسَاقَطُ شُعَاعٌ غَامِضٌ حَزِين،
مِنْ مِصْبَاحٍ مُلَطَّخٍ بِالدُّخَان،
فِيمَا يَتَمَشَّى الْحَارِسُ ـ خَلْفَ الْبَابِ ـ بِلاَ مَلاَمِح،
وَخُطواتُه الرتيبَة،
الَّتِي لاَ تَمنَحُ الرَّاحَةَ ولاَ الدِّفء،
تُرَدِّدُ الصَّدَى فِي الصَّمْت.

- 1837 -

موت الشاعر

مَاتَ الشَّاعِر!
سَقَطَ عَبْداً لِلشَّرَف ـ
الرَّصَاصُ فِي صَدْرِه يَصْرُخُ لِلانتقام،
وَالرَّأسُ الشَّامِخُ انْحَنَىٰ فِي النِّهَايَة ـ
مَات!
فَاضَتْ رُوحُه بِالأَلَمِ من الافْتِرَاءَاتِ الْحَقِيرَة
حَتَّى الانْفِجَار...
وَحِيداً وَقَفَ فِي الْمُوَاجَهَةِ، وَهَا قَد قُتل!
قُتِل!..
فَكُلُّ نُوَاحِ الآنَ عَقِيم
وَفَارِغَةٌ تَرَاتِيلُ الإِطْرَاء
وَهَمْهَمَاتُ الأَسَى الْكَسِيح
وَنَحْنُ نُحَمْلِقُ فِي إِرَادَةِ الْمَوْت!
وَبَعْد ـ فَهَلْ أَنْتُم أَبرِيَاء،
يَا مَنْ حَاصَرْتُم، فِي قَسْوَة،

مَوْهِبَتَه الْحُرَّة الشُّجَاعة؟
يَا مَنْ نَفَخْتُم في اللّهَبِ الْخَامِد
حَتَّى فَوْرَةِ الْغَضَبِ المُفَاجِئ؟
فَلْتَبْتَهِجُوا إذَن –
فَلَقَدْ كَانَ صَفَاءُ الأَلَمِ فَوْقَ طَاقَةِ الاحْتِمَال،
وَاشْهَدُوا الآن
أَنَّ قِنديلَ الْعَبْقَرِيّةِ انْطَفَأ
وإكْلِيل الغَارِ عَلَى جَبْهَتِهِ يَذْوِي.

لَمْ يَعْرِف الْقَاتِلُ التَّرَدُّد
وَهوَ يُصَوِّبُ فِي بُرُود...
لاَ طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ أَخْطَأَت الْقَلْب،
وَلاَ وَحْيٌ مُنْقِذٌ أَرْعَشَ الْبُنْدُقِيَّةَ فِي الْيَدِ الْوَحْشِيَّة.
وَتَعَجَّب
كَيْفَ اسْتَطَاعَ هَذَا اللاجِئُ الْوَضِيعُ الانْتِهَازِي،
أَدَاةَ الْقَدَرِ الْخَسِيسَةَ الْعَمْيَاء،
أَنْ يَحْتَقِرَ أَرْضَنَا، هَكَذَا،
وَيَسْخَرَ، فِي عَجْرَفَتِهِ، مِنْ لُغَتِهَا وَتَقَالِيدِهَا الأَصِيلَة
وَلاَ يَسْتَثْنِي مَفْخَرَتَهَا الْكُبْرَى،
فَيَتَمَهّل لِيَتَسَاءَلَ ضِدَّ مَنْ رَفَعَ يَدَه!...

قُتِل
مَاتَ وَارْتَحَل
مِثْلَ ذَلِكَ الشَّاعِرِ الرَّقِيقِ الْقَلْبِ، الْمَغْمُور،
وَالَّذِي أَنْشَدَ فِيهِ قَصَائِدَ رَائِعَة،
مَنْ، مِثْلَه، بِيَدٍ قَاسِيَةٍ خَرِبَة
سَقَطَ ضَحِيَّةَ الْغِيرَةِ الْعَمْيَاء.

لِمَاذَا غَادَرَ صَدَاقَاتِه وَتَأَمُّلاَتِه الآمِنَة
إِلَى عَالَمٍ مِنْ الْحَسَدِ الْخَانِق
لِقَلْبٍ عَشِقَ الْحُرِّيَّةَ واشْتَعَلَ بِالْحُب؟
لِمَاذَا أَسْلَمَ يَدَيْه لِلْوُشَاةِ التَّافِهِين؟
لِمَاذَا اسْتَسْلَمَ لِلْكَلِمَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالابْتِسَامَاتِ الْمُخَادِعَة؟
وَهوَ مَنْ كَانَ ـ مُنْذُ الشَّبَابِ قَادِراً عَلَى اكْتِشَافِ حَقِيقَةِ النَّاس...

لَقَدْ سَلَبُوهُ تَاجَهُ وَتَوَّجُوهُ بِالشَّوْك
لِيُمَزِّقَ الشَّوْكُ الْخَبِيء
جَبْهَةَ الشَّاعِرِ النَّبِيلَة،
وَكَانَتْ لَحظَاتُه الأَخِيرَة
مُسَمَّمَةً بِالشَّائِعَاتِ وَالْهَمْسِ الْبَذِيء
وَهَا قَدْ مَات ـ
بِالْعَطَشِ الْعَبَثِيِّ إِلَى الانْتِقَام

مُعَذَّباً بِالآمَالِ الْمُحَطَّمَةِ الَّتِي تَتَهَاوَى سَرِيعا...
لَنْ تَتَرَدَّدَ الأُغْنِيَاتُ الرَّائِعَةُ مِنْ جَدِيد،
فَالصَّوْتُ النَّبِيلُ يَخْلُدُ لِلصَّمْت
فِي الْحُجْرَةِ الصَّغِيرَةِ دُونَ بَاب...
وَآهٍ، أُغْلِقَتِ الشَّفَتَان.

أَمَّا أَنتُم، أَيَّتُهَا السُّلاَلَةُ الْمُتَعَجْرِفَة
يَا أَبْنَاءَ مَنِ اشْتُهِرُوا بِمَخَازِيهِم الْوَضِيعَة
يَا مَنْ بِقَدَمٍ ذَلِيلَةٍ قَدْ دُسْتُم
بَقَايَا عَائِلاَتٍ نَبِيلَةٍ تَجَهَّمَ لَهَا الْحَظ!
يَا مَنْ تُحِيطُونَ بِالْعَرْشِ فِي قُطْعَانٍ شَرِهَة،
كَالْجَلاَّدِينَ الَّذِينَ يُخْفُونَ نَوَايَاهم الْحَقِيرَة
فِي أَثْوَابِ الْعَدَالَةِ، مُتَظَاهِرِينَ بِالْبَرَاءَة
مَنْ أَجْلِ ذَبْحِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَجْدِ وَالْعَبْقَرِيَّة!
لَكِنْ هُنَاكَ حُكْمُ الرَّب
حُكْمٌ رَهِيبٌ يَنْتَظِر
لاَ يَمِيلُ مَعَ الذَّهَب
وَأَمَامَ الْعَرْشِ الإِلَهِي
لَنْ تُنْقِذُوا جُلُودَكَم بِقَذْفِ الأَوْحَال،
وَلَنْ تَسْتَطِيعَ كُلُّ دِمَائِكم الْقَذِرَة
أَنْ تُعَوِّضَ أَبَداً الدَّمَ الْعَادِلَ لِلشَّاعِر.

– 1837 –

برغم افتراقنا

وَبِرَغْمِ افْتِرَاقِنَا،
فَلاَ زِلْتُ أَحْمِلُ وَجْهَكِ فِي صَدْرِي كَمَ الْمَاضِي.
فَهوَ يَمْنَحُ رُوحِي الْفَرح
وَيَصُدُّ الأَشْبَاحَ الشَّاحِبَةَ لأَعْوَامٍ سَعِيدَةٍ.
وَلاَ زِلْتُ أَرْتَجِفُ مِنْ عِلاَقَاتِ الْحُبِّ الأُخْرَىٰ،
فَحَتَّى الآنَ لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَهْجُرَ حُبِّي ذَاك.
إنَّه لاَيَزَالُ كَالْمَعْبُودِ الإِلَهِيِّ الْمُتَهَاوِي،
كَضَرِيحٍ مَهْجُورٍ ــ مُجَرَّدَ ضَرِيح...

- 1837 -

الشـــاعر

خِنْجَرِي يُومِضُ بِنُقُوشٍ ذَهَبِيَّة،
النَّصْلُ مَوْثُوقٌ بِلاَ خَدْش،
وَفُولاَذُه عَالَجَتْهُ يَدُ الْبَرَاعَةِ الْقَدِيمَة —
ذَلِكَ السِّرُّ الشَّرْقِيُّ الَّذِي لاَ يُمكِنُ تَقْنِينُه.

مُنْذُ أَعْوَامٍ بَعِيدَةٍ كَانَ يُلَبِّي
كُلَّ رَغَبَاتِ أَحَدِ عَبِيدِ الْقَبَائِلِ الْجَبلِيَّة،
وَيُخَلِّفُ الْجِرَاحَ الرَّهِيبَةَ فِي الصُّدُورِ المُسَلَّحَة
وَيَصِيحُ.. لاَ ثَمَنَ لِلْقَتْل.

رَفِيقٌ مُخْلِصٌ فِي أَوْقَاتِ مَرَحِ سَيِّدِه
وَفِي وَقْتِ الشِّدَّةِ مُمِيتُ الصَّلْصَلَة
وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْبَعِيدَةِ، بَدَا هَذَا الْغِمْدُ الْمُرصَّعُ الثَّرِي
مَضْجِراً وَمُخْجِلا.

وَرَاءَ «التِّيرِيك» انْتَزَعَه قُوزَاقِيٌّ جَسُور
مِنْ جَسَدِ سَيِّدِه.

وَهَا هُوَ الآنَ مُلْقىً، مَهْجُوراً، فِي أَحْمَالِ بَائعٍ جَوَّال
وَسْطَ كُنُوزِهِ الزَّائِفَة.

ضَاعَ الآنَ ذَلِكَ الْغِمْد، وَتَلاَشَتْ نُدُوبُ الْمَعْرَكَةِ وَالْقُوة
الَّتِي هَزَّتْهُ مُنْتَشِياً بِالنَّصْر،
لِيُومِضَ الآنَ عَلَى حَائِطِي، زِينَةً ذَهَبِيَّة،
وَدِيعاً ـ وَاأَسَفَاه ـ وَمَنْبُوذا!

لاَ أَحَدَ يَعْتَنِي بِهِ الآنَ، وَلاَ أَيْدٍ خَبِيرَة
تَسْتَلُّ النَّصْلَ فِي حَنَان،
وَلاَ شِفَاه تُرَدِّدُ الصَّلَوَات الْمَنْقُوشَةَ كُلَّ فَجْر،
تِلْك الْمَوَاثِيق الْحَمَاسِيَّة الْقَدِيمَة.

فَتَأَمَّلْ، أَيُّهَا الشَّاعِر،
كَيْفَ فَقَدْتَ الاعْتِبَارَ فِي عَصْرِنَا الأَلِيف...
بَعْدَ أَنْ قَايَضُوكَ بِالذَّهَب
تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَنَالَ ـ الآنَ ـ الاعْتِبَار!

كَانَتْ كَلِمَاتُكَ الإِيقَاعِيَّةُ تُشْعِلُ قُلُوبَ الْمُحَارِبِين
كَمَا دِوِيّ بُوقِ الْمَعْرَكَة،
تُسْكِرُ كَمَا الْخَمْر، وَرُبَّمَا تَتَصَاعَدُ
كَمَا الْبُخُور سَاعَةَ الصَّلاَة.

وَقَصَائِدُكَ، كُانَتْ تُرَفْرِفُ حُرَّةً كَمَا الرُّوح الْقُدُس
لِتَقْتَنِصَ وَتَنْشُرَ صَدَى الأفكَارِ الْعَظِيمَة،
وَفِي أَزْمِنَةِ النَّصْرِ أَوِ السَّكِينَة
كَانَ صَوْتُكَ يَرِنُّ كَمَا أَجْرَاسِ «فِيشِي».

لَكِنَّ أُسْلُوبَكَ الْقَدِيمَ، الْبَسِيطَ وَالْفَخُور،
نَهْجُرُه الآنَ مِنْ أَجْلِ زَخَارِفَ أَكْثَرَ مَرَحاً
وَكَمَا عَجُوز مُتَصَابِيَة، تُخْفِي عَرُوسُ شِعْرِنَا قُبْحَهَا
بِالأَصْبَاغِ وَالْغُلالاَتِ الشَّفَّافَة.

آهٍ، أَيُّهَا النَّبِيُّ الْبَائِسُ، الأُضْحُوكَة...
أَلَنْ تَسْتَيْقِظَ أَبَدا،
وَلَوْ لِلحْظَةٍ، لِتَثْأَرَ مِنَ الإِهَانَاتِ الْمُتَوَالِيَة،
وَتَنْتَزِعَ مِنْ غِمْدِهِ نَصْلَ الْخِنْجَر
الَّذِي صَدِئَ مِنَ الْعَار؟

– 1838 –

الخنجر

أُحِبُّكَ كَثِيراً، يَا خِنْجَرِيَ الأَمِين،
أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْمَجْبُولُ مِنْ صُلْبٍ دِمَشْقِيٍّ بَارِد!
لَقَدْ صَاغَتْكَ أَيْدٍ جُورْجِيَّةٌ بِنِيَّةِ الانْتِقَام،
وَمَعَ الْجَرْكَسِيِّ الأَبِيِّ، أَصَبَحْتَ بَاتِراً مِنْ أَجْلِ الْحَرْب.

يَدٌ طَاهِرَةٌ مَنْ أَسْلَمَتْكَ لِي —
فَكُنْتَ تَذْكَارَ حُبٍّ، كُنْتَ هِبَتَهُ الأَخِيرَة...
وَمَا كَانَ دَماً، بَلْ دُمُوعاً مِنَ اللُّؤْلُؤِ أَطْلَقَهَا عَذَاب
الْفِرَاقِ الْمَرِيرِ، لِتَنْسَابَ عَلَى نَصْلِكَ سَرِيعَة.

وَاسْتَرَاحَتْ عَيْنَاهَا السَّوْدَاوَانِ، المفْعَمتَانِ بِالأَلَم،
بِالأَسَى وَالْغُمُوضِ، عَلَى وَجْهِي،
مِثْلَكَ عِنْدَمَا تَبْدُو عَلَى ضَوْءِ اللَّهَبِ الْوَامِض،
غَائِماً وَكَئِيباً حِيناً، وَحِيناً لاَمِعاً وَمُشْرِقا.

أَيُّهَا الْخِنْجَرُ، يَا ضَمَانَ الْحُبِّ الأَخْرَس،
سَوْفَ تَكُونُ صَدِيقِيَ الْحَقِيقِيَّ، سَوْفَ تَكُونُ الْمِثَالَ لِي:
فَمِنْ أَجْلِ إِخْلَاصِ الرُّوحِ وَقُوَّتِهَا
سَوْفَ أَكُونُ، مِثْلَكَ، مُعْمَّداً بِالنَّار.

— 1832 —

تأملات

أَتَأَمَّلُ جِيلَنَا بِأَسىً عَمِيق
وَمُسْتَقْبَلَه يَمْتَدُّ إلَى الظَّلامِ، إلَى الْفرَاغ.
وَإذْ يَعِي الْكَثِيرَ، ضَائِعاً فِي الْغُمُوض،
فَإنَّهُ يكْبُر تِجَاهَ الشَّيْخُوخَةِ فِي بَطَالَة.
ذَلِكَ أَنَّنَا أَغْنِيَاءُ، مُنْذُ الطُّفُولَة،
بِكُلِّ أَخْطَاءِ آبَائِنَا، بِعَقْلِيَّتِهِم وَوَعْيِهِم الضَّائِع،
وَالْحَيَاةُ، كَطَرِيقٍ أَمْلَس بِلاَ غَايَةٍ، وَصَمَتْنَا بِالْغبَاء
كَضُيُوفٍ يَجْلِسُونَ إلَى مَأْدُبَةٍ غَرِيبَة.
بِالْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ، فِي خِزْي، لاَ نُبَالِي
وَنَشِيخُ مُنْذُ لَحْظَةِ الْوِلاَدَةِ، قَبْلَ لَمْسَةِ الْجَرَّاح...

فِي وَجْهِ الْخَطَرِ، لاَنُبْدِي مُقَاوَمَة،
مُرْتَاعِينَ مِنَ السُّلْطَةِ، قَطِيعاً ذَلِيلا.
وَهَكَذَا يَنْضُجُ الثَّمَرُ الْهَزِيلُ مُبَكِّراً قَبْلَ الأوَان،
دُونَ عُذُوبَةٍ فِي الشَّكْلِ أَوِ الْمَذَاق،

وَرُبَّما تَدَلَّى كَلَقِيطٍ وَسْطَ إشْرَاقَةِ زَهْوِ الرَّبِيع،
مُدْرِكاً، حتَّى وَهوَ يُزْهِرُ، أَنَّه يَخْطُو إلَى الْمَوْت!

أَجْدَبَ تَفْكِيرُنَا تَحْتَ وَطْأَةِ التَّعْلِيمِ الْقَاحِل،
وَبِحَسَدٍ، نُخْفِي عَنْ أَخْلَصِ أَصْدِقَائِنَا
أَعَزَّ آمَالِنَا وَالتَّوهُّجَ النَّبِيلَ لِلأَحَاسِيس
الَّذِي تَسْخَرُ مِنهُ عُقُولُنَا الْمُرْتَابَة.
وَلَم تَكَدْ شِفَاهُنَا تَلْمَس كَأْسَ اللَّذَّة
فَلَمْ يُبْقِ هَذَا الْحَذَرُ عَلَى قُدرَاتِنَا،
فَمِنْ خَشْيَتِنَا الإِفْرَاطَ، تَرَاجَعْنَا مَسَافَاتٍ عَنْ كُلِّ فَرح
وَتَركْنَا، فِي النِّهَايَةِ، كُلَّ شَيْءٍ رَاكِدا.

الأَعْمَالُ الفَنِّيَّةُ الْعَظِيمَةُ والسَّامِيَةُ، وَالأَحْلاَمُ الشِّعْرِيَّة
لاَ تُوقِظُ فِي عُقُولِنَا رِعشَةَ الاستِجَابَةِ الْعَذْبَة
وَبِطَمَعٍ، نَخْتَزِنُ ثُمَالَةَ الإِحْسَاس،
لِتَظَلَّ مَدْفُونَةً، كعبقرِيَّةِ الْبَخِيلِ الضَّائِعَة.
وَمَحَبَّتُنَا كَمَا كَرَاهِيَتُنَا طَارِئَة،
فَلاَ نُقْدِمُ عَلَى أَيِّ تَضْحِيَةٍ لِلْحُبِّ أَوِ الْغَضَب.
بُرُودَةُ أَرْوَاحِنَا لاَ تَنْطَوِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ جَلِيل،
وَلاَ فِي دِمَائِنَا تَتَوهَّجُ النَّار.
وإذ تُسْرِعُ الْخُطَى بِنَا، مَجْهُولين، مَحْزُونِينَ، إلَى الْقُبُور،

سَاخِطِينَ عَلَى مَبَاهِجِ أَسْلاَفِنَا الصَّاخِبَة،
عَلَى طُفُولِيتِهِم المُرْهَفَةِ، المُعَرْبِدَة،
فَإِنَّنَا ننظُرُ إلَى الْوَرَاءِ فِي احْتِقَار...

جُمُوعاً مُتَجَهِّمَةً لاَ تَسْتَقِرُّ فِي الذَّاكِرَة،
سَنَعْبُرُ وَجْهَ الأَرْضِ، دُونَ أَثَر،
دُون بِذْرَةٍ فِكْرةٍ مُثْمِرَة،
دُونَ عَمَلٍ عَبْقَرِيٍّ، دُونَ وَمْضَةٍ مُتَوَهِّجَةٍ
تُضِيءُ الْعُصُورَ لأَحْفَادِنَا وَأَهَالِينَا القَادِمِين...
الَّذِينَ سَيَطْرُدُونَنَا مَعَ الرُّسُومِ الْهَازِئَةِ عَلَى الأَضْرِحَة
كَمَا ابْنٍ ـ إذْ يَرَى مِيرَاثَه مَنْهُوبا ـ
يَمْحُو أبَاه المُفْلِسَ ـ مُقَهْقِهاً.

ـ 1838 ـ

عرفـــان

مِنْ أَجْلِ كُلِّ شَيءٍ، أَشْكُرُكِ مِنْ أَجْلِ كُلِّ شَيء:
مِنْ أَجْلِ عَذَابِ الْحُبِّ السِّرِّيّ، وَسُمِّ الْقُبْلَات،
مِنْ أَجْلِ الْحُزْنِ وَالأَلَمِ، وَالدُّمُوعِ الْمُرَّةِ الْحَارِقَة،
مِنْ أَجْلِ الأَصْدِقَاءِ الْحَانِقِينَ، وَالأَعْدَاءَ الْحَاقِدِين —
مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذَلِكَ، وَأَكْثَرَ، أَكْثَر بِكَثِير:
مِنْ أَجْلِ كُلِّ الْعَنَاءِ الْفَارِغِ لِلْحَيَاة،
مِنْ أَجْلِ الْهَوَى الضَّائعِ، مِنْ أَجْلِ الْكَثِيرِ الَّذِي رَاحَ هَباء.
وَأُمْنِيتي الْوَحِيدَةُ، ذَلِكَ الأَمْلُ الْوَاهِي الَّذِي يَسْتَيْقِظُ فِيَّ،
هِي أَلاَّ يَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَشْكُرُكِ طَوِيلاَ....

— 1840 —

لأن

إذَا مَا كُنتُ حَزِيناً، فَذَلِكَ لأَنَّنِي أُحِبُّك.
وَأَعْرِفُ: أَنَّ فَسَادَ الشَّائِعَةِ الْكَاذِبَة
لَنْ يَحُولَ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ شَبَابُكِ المُتَوَرِدُ لَوْنَ الأَسَى.

وَفِي مُقَابِلِ كُلِّ سَاعَةِ فَرحٍ، سَوْفَ يَنْتَزِعُ الْقَدَرُ غَدا
ضَرِيبَةً مِنَ الدُّمُوعِ وَالأَلَمِ، سَيَكُونُ عَلَيْكِ وَحْدَكِ دَفْعَهَا.
وَلِذَا فَأَنَا حَزِينُ، يَا حُبِّي الْغَالِي،
لأَنَّكِ فِي غَايَةِ الْفَرَح.

— 1840 —

عيد الميلاد

وَسْطَ الزِّحَامِ الْمُخْتَلِطِ الأَلْوَانِ...
عِنْدَمَا تُغْرِقُنِي تِلْكَ الْهَمْهَمَةُ الْهَمَجِيَّةُ لِلتَّعْلِيقَاتِ المُبتَذَلَة،
عَلَى وَقْعِ الأَقْدَامِ وَدوَّامَةِ الْمُوسِيقَىٰ الصَّاخِبَة،
كَمَا فِي حُلْمٍ يُشْرِقُ أَمَامَ عَقْلِي،
وَتُحَاصِرُنِي الْوُجُوهُ الْجَامِدَةُ ـ
تِلْكَ الأَقْنِعَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ، الْوَاثِقَةُ، الْبَارِدَة،

عِنْدَمَا تَلْمَسُ فَاتِنَاتُ الْمَدِينَةِ، الْمُسْتَهْتِرَاتُ بِلاَ مُبَالاَة،
يَدَيَّ الْبَارِدَتَيْنِ بِأَيْدٍ لَمْ تَعْرِفْ الاشْتِعَالَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيد
وَلاَ الرِّعْشَةَ عِنْدَ ضَغْطَةِ الْيَدِ الأُخْرَىٰ..
أَبْدُو، وَأَنَا مُسْتَغْرِقٌ فِي هَذِهِ التَّفَاهَاتِ الْمَرِحَة،
وَكَأَنَّنِي أَسْمَعُهَا فِي الْبَعِيد
تِلْكَ الأَلْحَانَ الْقُدْسِيَّةَ لِلسَّنَوَاتِ الْمَاضِيَة
وَهِيَ تُعَانِقُ رُوحِي.

وَآهٍ، لَوْ كَانَ لِي أَنْ أَضِيعَ لِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الذِّكْرَيَات ـ

إذَنْ لَحَلَّقْتُ عَائِداً إلَى الْمَاضِي
طَائِراً حُرًّا، حُرًّا،
حَيْثُ أَرَى نَفْسِيَ طِفْلاً، وَأَرَى كُلَّ الأَمَاكِنِ
الْمُحِيطَةَ الَّتِي أَعْشَقُهَا:
مَوْطِنِي،
وَذَلِكَ الْقَصْرَ الرَّاسِخَ الشَّامِخَ فِي مُوَاجَهَةِ السَّمَاء،
الحَدِيقَةَ وَتَعْرِيشَتَهَا الْمكْسُورَةَ
وَالْمَاءَ الطِّينِيَّ الْمُخْضَرَّ النَّاعِسَ، وَفِي الْوَرَاءِ،
الضَّبَابَ الْمُتَصَاعِدَ وَمَدَاخِنَ الْقَرْيَةِ تُرْسِلُ الدُّخَان،
فَأَعْبُرُ الطَّرِيقَ الشَّجَرِيَّ الْمُظْلِمَ، وَهُنَاك
يَنْحَدِرُ ضَوْءُ الْمَسَاءِ خِلاَلَ الأَغْصَان
إلى حيثُ الأوراق الصفراء تهتز عند اقتراب
الخطوات الرقيق.

وَيَرْتَعِشُ قَلْبِي الْبَائِسُ بِرَهْبَةٍ غَرِيبَة،
تَتَسَلَّلُ إِلَى ذَاكِرَتِي، فَأَبْكِي وأَهِيمُ،
أَهِيمُ بِمَخْلُوقَةِ أَحْلاَمِي،
الَّتِي تَفِيضُ عَيْنَاهَا بِالْبَرِيقِ الّلازورْدِي،
بِبَسْمَتِهَا الْوَرْدِيَّةِ كَمَا النَّهَار الَّذِي أَهَلَّ
عِنْدَ الْفَجْرِ وَرَاءَ الْبُسْتَانِ وَامِضاً لِلْمَرَّةِ الأُولَى.

وَهَكَذَا، سَيِّداً فِي مَمْلَكَةٍ مِنْ صُنْعِي
أَجْلِسُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ وَحِيدا...

وَكَمَا جَزِيرَةٍ خَضْرَاءَ، بِكْر
تَعِيشُ ذَاكِرَتِي وَسْطَ الْبِحَارِ الْعَاصِفَة
مِنَ الشُّكُوكِ وَالأَهْوَاء..
جَزِيرَةً عذْبَةً مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَسْطَ ضَيَاعٍ شَامِل.

وَعِنْدَمَا أَسْتَعِيدُ نَفْسِي، مُدْرِكاً الْوَهْم،
وَحُلْمِيَ الْعَفوِي، وإذْ يَفْجَأُنِي صَخَبُ الْعَالَم،
أَجْفَلُ فِي مَكْمَنِي كَمَا أَيْل ـ
فَآهٍ، كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ أَفْضَحَ مَرَحَهَم الْفَارِغ،
وأَنْ أَقْذِفَ فِي وُجُوهِهِم الْقَصَائِدَ كَحِرَابٍ حَدِيدِيَّة
إنَّهَا دَرَجَةُ الْمَرَارَةِ فِي الْغَضَبِ وَالتَّشَبُّعِ بِالْكَرَاهِيَة.

ـ 1840 ـ

هدهدة قوزاقية

نَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ، يَا طِفْلِي،
أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَنَمْ.
الظَّلامُ يَأْتِي، وَإِلَى مَهْدِك
تَتَسَلَّلُ أَشِعَّةُ الْقَمرِ فِي حَيَاء.
سَوْفَ أُغَنِّي لَكَ أُغنيَاتٍ جَميلَةً كَثِيرَةً
وَأُغْنيَاتٍ مُهَدْهِدَةً.
وَسَوْفَ يَأْتِي الْمَسَاءُ بِأَحْلاَمٍ مُفْرِحَة...
فَنَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

المِيَاهُ الطِّينيَّةُ تَضْطَرِبُ فِي غَضَب،
وَعَالِياً يَزْأَرُ «التِّيرِيك»،
وجَرَكْسِيٌّ وَمَعَهُ خِنْجَر
يَقْفِزُ إِلَى الشَّاطِئ.
فُولاَذِيٌّ أَبُوكَ فِي مَعْرَكَةِ الشَّرَف..
وَأَنْتَ وَأَنَا،

يَا صَغِيرِي، لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْقَلَق...
فَنَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

لَسَوْفَ يَأْتِي يَوْمٌ، يَا بُنَيَّ، تَقْفِزُ فِيهِ بِجَسَارَة،
مِثْلَ أَبِيك
عَلَى فَرَسِكَ وَتُعَلِّقُ عَلَى كَتِفك،
فَخُوراً، بُنْدُقِيَّةً قُوزَاقِيَّة.
وَبِحَرَائِرَ زَاهِيَةٍ سَوْفَ أَخِيطُ لَك
سَرْجَك.. وَهُنَاك
تَمْتَدُّ أَمَامَكَ طُرُقٌ لَمْ يَطْرُقْهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْل..
فَنَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

لَسَوْفَ تَكْبُر وَتُصْبِحُ قُوزَاقِيًّا
جَسُوراً وَأَصِيلا.
وَسَوْفَ تَنْطَلِقُ عَلَى فَرَسِكَ، وَسَأَقِفُ بِلاَ دُمُوع،
أُتَابِعُكَ بِنَظَرَاتِي.
وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَغِيبُ عَنِ النَّظَرِ، يَا بُنَي،
سَوْفَ أَبْكِي بِمَرَارَة...
لَعَلَّ الأَحْلاَمَ الَّتِي تَحْلُمُ تَكُونُ رَقِيقَةً، يَا بُنَي،
نَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

عَنْدَمَا يَحلُّ الْفِرَاقُ، فَإِنَّ تَفْكِيرِي فِيك
سَوْفَ يَشْغَلُ كُلَّ أَيَّامِي.

وَفِي الْمَسَاءِ، قَلِقَةَ الْقَلْبِ،
سَوْفَ أُصَلِّي مِنْ أَجْلِك.
وَلَسَوْفَ أُفَكِّرُ فِي أَنَّكَ وَحِيد،
وَأَنَّكَ تَتَلَهَّفُ عَلَى الْوَطَن..
فَنَمْ، يَا بُنَيَّ، يَا وَحِيدِي وَجَمِيلِي،
نَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

سَوْفَ أَرَاكَ عِنْدَ الْمُنْعَطَف،
وَسَوْفَ تَمْضِي بَعِيدا.
سَوْفَ تَرْحَلُ بِأَيقُونَتِي
وتُصَلِّي أَمَامَهَا.
فَدَعْ أَفكَارَكَ وَقْتَ الْخَطَر
تُحَلِّق طَائِرَةً نَحْوَ أُمِّك.
وَلْتُغْمِضْ عَيْنَيْكَ، وَلْتَنَمْ، يَا مَلاَكِي،
لِتَنَمْ، يَا حَبِيبِي، نَمْ.

— 1840 —

الفارس الأسير

صَامِتَةٌ وَسَاكِنَةٌ زِنْزَانَتِي، وَالسَّمَاء
تَقْطَعُهَا الْقُضْبَانُ، لَكِنَّهَا بَهِيجَةٌ وَزَرْقَاء.
وَتُفْضِي بِي مُرَاقَبَةُ الطُّيُورِ، وَهِيَ حُرَّةٌ وَمَرِحَةُ الطَّيَرَان،
إِلَى الْعَارِ وَتُفْعِمُنِي بِالأَلَمِ مِنْ جَدِيد.

لاَ أُنْشِدُ الْقَصَائِدَ الْغِنَائِيَّةَ فِي امْتِدَاحِ حَبِيبَتِي،
وَلاَ صَلاَةٌ عَلَى شَفَتَيَّ: فَقَد أُوصِدَتَا.
بَلْ أَجْلِسُ هَادِئاً أُحَدِّقُ فِي الْمَاضِي،
فَأَرَى الْمَعَارِكَ الَّتِي خُضْتُهَا فِي الْمَيْدَان.

سِلاَحِي لَيْسَ مَعْدَنِيًّا، بَلْ حَجَرِيّ،
وَأَنَا مُثْقَلٌ بِخَوْذَةٍ مِنْ حَجَر.
لاَ تَسْتَطِيعُ سِهَامُ الأَعْدَاءِ وَسُيُوفُهم أَنْ تُصِيبَنِي،
وَحِصَانِي يَعْدُو وَحِيداً، بِلاَ سَرْجٍ، إِلَى الأَمَام.

الزَّمَنُ حِصَانِي، وَتِلْكَ الْقُضْبَانُ قِنَاعِي،
وَدِرْعِي بَابٌ مُصَفَّدٌ فِي الْحَدِيد.

تُطَوِّقُنِي الْجُدْرَانُ السَّمِيكَةُ، جُدْرَانُ سِجْنِي،
إنَّهَا السِّلاَحُ الَّذِي سَأَحْمِلُه مَعِي إلَى الأَبَد.

فَلْتُحَلِّقْ، أَيُّهَا الْحِصَان! فَالطَّرِيقُ يَمْتَدُّ أَمَامِي طَوِيلا،
وَأَنَا لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَنَفَّسَ أَوْ أَتَحَرَّكَ فِي سِلاَحِي!
وَتَعَالَ، أَيُّهَا الْمَوْتُ، هَيَّا امْسِكْ لِي بِالرِّكَاب،
حَتَّى أَتَرَجَّلَ وَأَنْزَعَ خُوذَتِي.

— 1840 —

خــواء

هَذَا الْخَواءُ، وَالأَسَى، وَلاَ أَحَد يَمُدُّ يَدَيْه
مَهَوِّناً عِنْدَمَا تُبَاغِتُنَا الْعَوَاصِف.
الرَّغَبات! مَا جَدْوَى الرَّغَبَاتِ الْمُحْبَطَة،
وَالتَّطَلُّعَاتِ الضَّائِعَة؟...
وَعَاماً وَرَاءَ عَام — تَهْربُ مِنَّا أَجْمَلُ الأَعْوَام.

أَنْ نُحِب.. لَكِنْ لِمَاذَا؟. ذَلِكَ لا يُسَاوِي
لَحْظَةَ أَلَمٍ وَاحِدَة،
وَلاَ أَحَدَ يُحِبُّ إِلَى الأَبَد.
فَفَتِّشْ قَلْبَك.. هَلْ هُنَاكَ أَيُّ أَثَرٍ لا يَزَالُ مِنَ الْمَاضِي؟
إِنَّ كُلَّ بَهْجَتِه وَحُزْنِه — مُجَرَّدُ مُحَاوَلَةٍ ضَائِعَة...

الأَحَاسِيسُ الْمَشْبُوبَة؟ لِمَاذَا،
فَعَاجِلاً أَوْ آجِلاً سَيزُولُ الطِّلاَءُ الْعَذْبُ تَحْتَ وَطْأَةِ
الْحَذَرِ الْعَقْلِيِّ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَة..
وَلَوْ كَانَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ حَوَالَيْكَ بِيَقَظَةٍ بَارِدَة،
لَوَجَدْتَ الْحَيَاةَ، بِبَسَاطَة،
مِزْحَةً فَارِغَةً، بَلْ وَرَدِيئَة...

— 1840 —

النبـــي

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي جَعَلَنِي فِيه الرَّب
حَكِيماً وَنَبِيا،
قَرأتُ الْحِقْدَ فِي عُيُونِ النَّاس
وَعَانَيْتُ الْعَدَاوَةَ وَالْهَوَى الْمَرِيض.

أَتَيْتُ لَهُمْ بِكِلْمَةِ الرَّب
وَعَلَّمْتُ رِفَاقِي أَنْ يُحِبُّوا جِيرَانَهم،
وَعَجباً! فَقَدْ كَانُوا يَتَحَيَّنُون رَجْمِي
وَمُعَاقَبَتِي عَلَى أَعْمَالي.

عِنْدَئِذٍ، غَطَّيْتُ رَأْسِي بِالرَّمَاد،
مُخْفِياً وَجْهِي عَنِ الرِّعَاعِ، كَشَحَّاذ،
وَهَرَبْتُ إِلَى الصَّحرَاء
حَيْثُ أَعِيشُ حُرًّا كَمَا الطُّيُور.

تَعَلَّمَت الْحَيَوانَاتُ أَنْ تَخْدُمَنِي:
فَهِيَ تَفْعَلُ مَا تَهْوَى الطَّبِيعَة.

وَفَوْقِي تُومِضُ نُجُومُ السَّمَاءِ، شَارِدَةً، وَتَلْهُو
وَتَبْدُو مُصْغِيَةً لِي وَأَنَا أُصَلِّي.

نَادِراً مَا أُغَامِرُ بِالذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَة،
وَعِنْدَمَا أَذْهَب، أُسَارِعُ بِالرَّحِيل.
وَإِذْ يَلْمَحنِي الْعَجَائِزُ، يَتَجَهَّمُون
وَيَقُولُونَ لِلشَّبَاب: «فَلْتَتَّعِظُوا بِه.
فَقَدْ تَحَدَّى الْقَوَانِينَ الَّتِي حَكَمَتْنَا
وَأَصَرَّ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ يَتَحَدَّثُ بِلِسَانِه!
إِنَّه الْغُرُورُ الَّذِي دَمَّرَه،
فَالأَحْمَقُ مُقِيمٌ عَلَى أَوْهَامِه...
أُنْظُرُوا كَيْفَ يَبْدُو بَالِياً وَشَاحِبا،
كَيْفَ يَبْدُو مُنْهَكاً وَهَزِيلا...
عَيْنُه كَئِيبَةٌ، وَثِيَابُه شَعْثَاء،
فَهوَ مَنْذُورٌ لِلازْدِرَاء».

— 1841 —

وحيدا

(1)

وَحِيداً يَمْتَدُّ أَمَامِي الطَّرِيقُ المختَفِي فِي الضَّبَاب ،
وَأَبَداً يَلْتَوِي وَيشُدُّنِي بَعِيدا .
المَسَاءُ لاَ يزالُ ، وَكُلُّ الأَصْوَاتِ الأَرْضيَّةِ تَمُوت ،
الطَّبِيعَةُ تُصْغِي إلَى اللهِ ، وَالنَّجْمُ يُحَادِثُ النَّجْم .

(2)

الأرْضُ تَلْتَفُّ بِالظَّلامِ وَتَسْتَغْرِقُ فِي النَّوْم ،
وَالسَّمَاءُ مُتْرعَةٌ بِالْمَهَابَة .
فَلِمَاذَا يُعَذِّبُ التَّفْكِيرُ الْمُوحِشُ الكَئِيب
قَلْبِي ، وَيَغْتَالُ مِنِّي الْهَنَاءَة ؟

(3)

لاَ أَنْتَظِرُ هِبَات الْقَدَر ، غَيْرُ نَادِم

عَلَى الْمَاضِي، الَّذِي دُفِنَ عَمِيقا.
فَآهٍ، لَوْ نَعْثُر عَلَى حُرِّيَّةٍ حَقِيقِيَّة، عَلَى نِسْيَانٍ حَقِيقِي
فِي سَكِينَةِ النَّومِ الأَبَدِي!

(4)

وَلَكِنِّي أَرْهَبُ الأَصَابِعَ الرَّطْبَةَ الْبَارِدَة
وَالنَّومَ الرَّصَاصِيَّ الثَّلْجِيَّ لِلْمَوْت.
فَلَيْتَ هَذِهِ الْحَيَاةَ النَّاعِسَةَ فِي دَاخِلِي تَدُوم
وَأَحِسَّ دِفْئَهَا وَأَنْفَاسَهَا الْعَاطِرَة،

(5)

وَلَعَلَّ صَوْتَ الْحُبِّ ذَاكَ، يُغَنِّي لِي،
مُهَدْهِداً سَمْعِي، أُغْنِيَاتٍ عَذْبَةً لَيْلَ نَهَار،
وَلَعَلَّ سِنْدِيَانَةً عَجُوزاً تَتَمَايَلُ،
إِذْ تَحْرُسُ نَوْمِي، فَوْقَ رَأْسِي إِلَى الأَبَد.

— 1841 —

حُلم

فِي دَاغِسْتَان، حَيْثُ لا غَيْمَةٌ تَحْجبُ شَمْسَهَا الْحَارِقَة،
أَرقُدُ، وَالرَّصَاصَةُ فِي ضُلُوعِي، دُونَ حَرَكَةٍ أَوْ صَوْت،
وَجُرْحِي لا يَزَالُ طَرِيًّا يَنْفُثُ الدُّخَان
وَقَطْرَةً قَطْرَةً يَتَسَرَّبُ دَمُ حَيَاتي.

مُمدَّداً عَلَى الرَّمْلِ أَسْتَلْقِي، وَحَوْلِي
تَنْحَدِرُ التِّلالُ الْمُطِلَّةُ فِي غُمُوضٍ دُونَمَا حَرَكَة..
وَفَوْقَ رُؤُوسِهَا تَنْصَبُّ الشَّمْس،
وَحِينَمَا عَثَرتْ أَشِعَّتُهَا السَّاطِعَةُ عَلَيَّ أَحْرَقَتْنِي أَيْضا ـ
لَكِنَّنِي اسْتَغْرَقْتُ ـ تَمَاماً ـ فِي النَّوْم.

حَلُمْتُ بِمَوْطِنِي وبِحَفْلٍ بَهِيجٍ مُتَأَلِّق
حَيْثُ الصَّخَبُ وَالطَّرَبُ هُمَا كُلُّ شَيء
وَحَيْثُ السَّيِّدَاتُ الْفَاتِنَاتُ، المُطَوَّقَاتُ بِالْوُرود،
مُسْتَغْرِقَاتٌ فِي حَدِيثٍ عَذْبٍ مُضِيء،
كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنِّي.

لكِنْ وَاحِدَة كَانَتْ تَجْلِسُ هُنَاكَ حَزِينَة،
غَرِيقَةً فِي تَفْكِيرٍ بَعِيد: وَحِيدةً كَانَت
فَالأَحْلامُ الْحَزِينَةُ جَرَفَتْ رُوحَهَا الْفَتِيَّة،
وَحْدَه اللهُ يَعْلَمُ، لِمَاذَا، بَعِيداً، بَعِيدا.

كَانَ وَادِي دَاغِسْتَان الْمتَأَلِّق هُو مَا تَحْلُم بِه
حَيْثُ يَرْقُدُ هُنَاكَ رَجُلٌ كَانَتْ تَعْرِفُه فِي الْمَاضِي.
جُرْحٌ أَسْود فِي ضُلُوعِه انْشَق
وَجَدْوَلُ مِنَ الدَّمِ سَالَ، بَطِيئا،
وَسَرْعَانَ مَا أَصْبَحَ بَارِدا.

— 1842 —

لستِ أنت

(1)

لاَ، لَسْتِ أَنْتِ الَّتِي مَالَ قَلْبِي إِلَيْهَا
وَرَوعَةُ جَمَالِكِ لَيْسَتْ لِي:
فَفِيكِ أُحِبُّ أَنْ أَتَذَكَّر
الأَسَى الْمَاضِي وَالشَّبَابَ الضَّائع.

(2)

وَأَحْيَاناً عِنْدَمَا أَنْظُر إِلَيْك
وَأُحَاوِلُ ـ بِنَظْرَةٍ ثَابِتَةٍ ـ أَنْ أَنْفُذَ إِلَى قَلْبِك
فَإِنَّنِي أَقُومُ بِدَوْرِي فِي حَدِيثٍ خَفِي ـ
وَلَكِنْ مَعَ شَخْصٍ آخَر يَكُونُ حَدِيثِي.

(3)

أَتَحدَّثُ ـ حِينَئِذٍ ـ مَعَ حُبِّي الضَّائِعِ مُنذُ زَمَنٍ بَعِيد،
أَبْحَثُ فِي مَلامِحِكِ عَنْ مَلامِح أُخْرَى
وَفِي شَفَتَيْكِ الْمُشْتَعِلَتَيْن، أَرَى شَفَتَيْن انْطَفَأَتَا
مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيد،
وَأَرَى عَيْنَيْكِ مَعَ تَأَلُّقِ الأَحَاسِيسِ الْمُنْطَفِئَة.

ـ 1841 ـ

حكاية القيصر إيفان فاسيليفيتش
وحارسه الشاب
والتاجر الشجاع كالاشنيكوف

مَرْحَباً بِك، كُلَّ التَّرحِيبِ، أَيُّهَا الْقَيْصَر إيفَان فَاسِيليفيتش!
فَعَنْكَ نَحْكِي حِكَايَتَنَا، أَيُّهَا الْقَيْصَر!
نَعَمْ، عَنْكَ، وَعَنْ حَارِسِكَ الْمَحْبُوب،
وَعَنِ التَّاجِرِ الشُّجَاعِ كَالاشْنِيكُوف.
عَلَى الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ نَحْكِي حِكَايَتَنَا،
وَنُغَنِّيهَا عَلَى إيقَاعَاتِ السِّنْتُور،
نُنْشِدُهَا عَالِياً وَنَتَغَنَّى بِهَا،
وَيبتَهِجُ بِهَا كُلُّ الشَّعْبِ الْمَسِيحِيِّ الطَّيِّب.
أَمَّا النَّبِيل «ماتْفِي رُومُودَانُوفِسْكِي»،
فَقَدْ أَعْطَى كُلَّ شَخْصٍ كَأْساً مِنَ «الْمِيد» المُزْبِد
قَدَّمَتْه لَنَا زَوْجَتُه الْجَمِيلَة،
عَلَى صِينِيَّةٍ فِضِّيَّةٍ جَمِيلَة،
وَمِنْشَفَةٍ رَائِعَةٍ تَتَخَلَّلُهَا الْخُيُوطُ الْحَرِيرِيَّة.
لِثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَثَلاثِ لَيَالٍ، شَارَكْنَا فِي الْحَفْل،
غَنَّيْنَا بِلا نِهَايَةٍ، لَكِنَّهُم طَالَبُوا بِالْمَزِيد.

(1)

لاَ، لَيْسَت الشَّمْسُ الْمُشْرِقَةُ هِيَ مَا يَسْطَعُ فِي السَّمَاء،
مَعَ الْغُيُومِ فِي جَمَالِهَا الرَّائع،
إنَّه الْقَيصَرُ يَجْلِسُ إلَى مَائدَتِه، فَخُورَ الطَّلْعَة،
الْقَيصَر إيفَان فَاسيليفيتْش فِي تَاجِهِ الذَّهَبِي.
خَلْفَه يَنْتَصِبُ الْخَدَم،
وَأَمَامَه يَجْلِسُ النُّبَلاءُ وَالأَمَرَاء،
وَإلَى جَانِبَيْه يَجْلِسُ حُرَّاسُه.
يَحْتَفِلُ الْقَيْصَرُ الطَّيِّبُ بِمَجْدِ الرَّب،
وَيَمْرحُ الْقَيصَرُ حَتَّى يَبْلُغَ رِضَا الْقَلْب.

يَأْمُرُ خَدَمَه مَبْتَسِما
بِأَنْ يُتْرِعُوا كَأْسَه الذَّهَبِيَّ بِخَمْرٍ عَتيقٍ، لَذِيذ،
خَمْرٍ عَتِيقٍ، لَذِيذٍ، مِنْ وَرَاءِ الْبِحَار،
وَأَنْ يَدُورُوا بِه عَلَى رِجَالِ الْحَاشِيَةِ الْبَوَاسِل ـ
وَيَشْرَبُ الْفرسَان وَيُمجِّدُون الْقَيصَر.

وَاحِدٌ مِنْ بَيْنِهِم جَمِيعاً، فَتىً شُجَاعٌ، جَمِيل،
لَكِنَّه عَنِيدٌ، نَزِقُ الْقَلْب،
لَمْ يُبَلِّلْ شَفَتَيه مِنَ الْكَأْسِ الذَّهَبيّ،
إذْ جَلَسَ عَابِسَ الْوَجْهِ، مَحْنِيَّ الرَّأْس.
وَعَيْنَاه كَسِيرَتَان إلَى الأَرض،
غَرِيقاً فِي الْكَآبَةِ وَمُحَاوَلَةِ التَّفكِير.

تَحَيَّرَ الْقَيصَرُ الْعَظِيم،
عَقَدَ حَاجِبَيْه، وَبِنَظْرَةٍ نَافِذَة،
كَمَا الصَّقْرِ الضَّارِي عِنْدَمَا يَلْمَحُ مِنَ الأَعَالِي
الْحَمَامَةَ الزَّرقَاءَ الرَّمَادِيَّة، لَمَحَ الْفَتَى...
لَكِن الْفَتَى كَانَ يُمْعِنُ التَّفكِيرَ، وَرَأْسُه مَحْنِيَّةٌ خَفِيضَة...
أَسْقَطَ الْقَيْصَرُ ـ فِي غَضَبِه ـ عَصَاتَه الثَّقِيلَة،
وَمَعَ صَوْتِ الارْتِطَامِ الْمُدَوِّي، اخْتَرَقَ رَأْسُهَا الْحَدِيدِي
كَامِلاً وَعَمِيقاً الأَرضِيَّةَ الْخَشَبِيَّة ـ
وَمَا زَالَ الْفَتَى يُمْعِنُ التَّفكِيرَ، فَلَمْ يُصْدِر أَيَّ حَرَكَة.
فَانْطَلَقَ الْقَيْصَرُ فِي صَوْتٍ مُرْعِد ـ
وَاسْتَيْقَظَ الْفَتَى مِنْ حُلْمِ يَقَظَتِه.

«أَنْصِتْ وَاسْتَمِعْ، يَا كيريبيفيتش»، يَا فَتَايَ الشُّجَاع،
أَهِيَ فِكْرَةٌ خَائِنَةٌ تِلْكَ الَّتِي تُضْمِرُهَا؟
أَتَحْسِدُ الْقَيصَرَ عَلَى مَجْدِهِ وَشُهْرَتِه؟
أَمْ أَصْبَحَت الْخِدْمَةُ الْمُخْلِصَةُ عِبْئاً عَلَيْك؟...
عِنْدَمَا يَظْهَرُ الْقَمَرُ، تَبْتَهِجُ النُّجُومُ اللَّامِعَة
إِذْ يَتَزَايَدُ الضِّيَاءُ فِي مَمَرَّاتِ السَّمَاء.
وَلَكِن، إِذَا مَا أَخْفَى أَحَدُهُم وَجْهَه،
فَإِنَّه سَيَسْقُطُ، مُحْتَرِقاً، إِلَى الأَرضِ الْمُعْتِمَة...
ذَلِكَ لا يَلِيقُ بِك، يَا «كريبيفيتش»،
أَنْ تَزْدَرِي قَيْصَرَكَ وَمَرحَه هَكَذَا،
أَلا تَنْتَمِي إِلَى آل «سكُوراتُوف» بِالْمِيلاد،

وَقدْ تَربَّيْتَ فِي بَيْتِ «ماليوتا»؟ ...»

رَدَّ الْحَارِسُ عَلَى قَيْصَرِه،
وَقد انْحَنَى أَمَامَه حَتَّى الأَرض:
«فَلْتَسْمَعْ لِي، يَا قَيْصَرِي، أَرْجُو أَنْ تَسْمَعَ لِي!
وَلا تكُنْ غَاضِباً عَلَيَّ، أَنَا عَبْدُكَ الضَّئِيل!
فَالْخَمْرُ لا تُطْفِئُ لَهِيبَ قَلْبٍ يَحْتَرِق،
وَلا تَطْرِدُ الأَفكَارَ الْكَئِيبَةَ السَّوْدَاء.
وَلَو أَنَّنِي كُنْتُ سَبَباً فِي إِزْعَاجِكَ، يَا سَيِّدِي، فَلْتُنْفِذْ مَشِيئَتَك،
فَلْتَأْمُرْهُم بِأَنْ يُقَيِّدُوا عَبْدَكَ وَيَقْطَعُوا رَأْسَه ــ
فَهِيَ تُثْقِلُ عَلَى كَتِفَيَّ الْعَرِيضَيْن كَثِيراً، أَيُّهَا الْقَيْصَر،
حَتَّى لَيَنْحَنِيَا إِلَى مُسْتَوَى عُشْبِ الأَرض...»

فَقَالَ لَه الْقَيْصَر، ضَاحِكاً قَال:
«مَا الَّذِي يُمكِنُ أَنْ يُحْزِنَ شَابًّا شُجَاعاً مِثْلَك؟
هَلْ تَهرَّأَ مِعْطَفُكَ الْحَرِيرِيُّ وَبَلِيَ مَعَ الزَّمَن؟
هَلْ أَصْبَحَتِ الآنَ قُبَّعَتُكَ الْفَرو، الَّتِي كَانَتْ بَدِيعَةً، بَالِيَة؟
هَلْ أَصْبَحَ جَيْبُكَ خَالِياً مِنَ النُّقُودِ الرَّنَّانَة، بَعْدَ أَن كَانَ مُتخَماً بِها؟
هَلْ أَصبَحَ سَيْفُكَ صَدِئاً وكَلِيلاً، بَعْدَ أَنْ كَانَ بَاتِرا؟
هَلْ أَصَابَ جَوَادَكَ الْعَرَج؟ أَلَم يُجْدِ مَعَه الْعِلاج؟
أَمْ انَّ ابْنَ أَحَدِ التُّجَّارِ قَدْ هَزَمَك
فِي مَعْرَكَةٍ بِالْلَكمَاتِ عَلَى ضِفَّةِ النَّهر؟»

هَزَّ «كريبيبفيتش» ذُو الْخُصلاتِ الْمَعْقُوصَةِ فِي فَخَار

رَأسَهُ، مُجِيبا:
«لا ابْنَ تَاجِرٍ، وَلا ابْنَ نَبِيلٍ، أَبَدا،
فَلا يُوجَدُ مَنْ يَسْتَطِيعُ هَزِيمَتِي،
وَجَوَادِيَ الأَصِيلُ يَعْدُو سَرِيعاً، أَبَداً لا يَتَرنَّح،
وَسَيْفِيَ الْبَاتِرُ يَضْوِي، لامِعاً كَالزُّجَاجِ الْمَصْقُول،
وَبِفَضْلِكُم، يَا سَيِّدِي، أَتَبَاهَى بِالْمَلابِسِ الْفَاخِرَة
فِي يَوْمِ الْحَفْلِ، كَأَيِّ رَجُل،

عِنْدَمَا أَمْتَطِي جَوَادِي وَأَمْضِي بِهِ
بِجَانِبِ نَهْرِ «موسكوفا» وَوَرَاءَه،
وَوِشَاحِيَ الْحَرِيرِيُّ مَعْقُودٌ حَوْلَ خَاصِرَتِي
وَقُبَّعَتِي الْمَخْمَلِيَّةُ الْمُزَيَّنَةُ بِفَرْوِ السَّمور
مُسْتَقِرَّةٌ عَلَى شَعْرِيَ الْمَعْقُوص
تَخْرُجُ الْفَتَيَاتُ وَالزَّوْجَاتُ الْفَاتِنَاتُ إِلَى الأَبْوَاب،
يَقِفْنَ بِالأَبْوَابِ وَيُحَمْلِقْنَ فِيّ،
وَيَمضِينَ فِي حَدِيثٍ هَامِسٍ نَاعِم.
وَاحِدَةٌ ـ فَحَسْب ـ مِنْهُنَّ تَنْصَرِفُ عَنِّي،
وَهِيَ تُسْدِلُ عَلَى وَجْهِهَا خِمَاراً مِنْ حَرِير.

فَلْتُفَتِّشْ رُوسيَا كُلَّهَا، تِلْكَ الأَرض الْمُقَدَّسَة،
فَلَنْ تَجِدَ، أَيُّهَا الْقَيصر، مَنْ هِيَ فِي فِتْنَتِهَا:
هِيَ الَّتِي تَسِيرُ فِي رَشَاقَةِ الْبَجعَةِ بَيْضَاءَ الْجَنَاح،
نَظْرَتُهَا رَقِيقَةٌ كَنَظْرَةِ حَمَامَةٍ صَغِيرَة،

وَصَوتُها فِي حَنَانِ صَوْتِ الْكَرَوَان،
وَرديَّةٌ كَمَا الشُّعَاعِ الأَولِ لِلْفَجْرِ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلْيَا،
وَعَلَى خَدَّيْهَا الْعَذْبَيْن تَتَفَتَّحُ وَرْدَتَانْ،
شَعْرُهَا الذَّهَبِيُّ مَجْدُولٌ بِشَرَائِطِ الْفَرح،
وَمَشْدُودٌ إِلَى ضَفَائِر حَرِيرِيَّة.
تَجْرِي، يَا سَيِّدِي، تَحْتَ كَتفَيْهَا لَعُوبَة
وَتُلامِسُ صَدْرَهَا النَّاصِعَ فِي حَنَان.
وَهي تَعيشُ فِي بَيْتِ أَحَدِ التُّجَّار
وَتُسَمَّى «الْيُونا دميتريفنا».

عِنْدَمَا أَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا لا أَعُودُ كَمَا أَنَا:
يَخُورُ ذِرَاعَايَ، لِيُصْبِحَا خَائِرَيْنِ وَاهِنَيْن،
وَعَيْنَايَ الْحَادَّتَانِ تُصْبِحَانِ كَلِيلَتَيْنِ مُعْتِمَتَيْن،
وَيُفْعِمُ الأَسَى قَلْبِي مَعَ تِلْكَ الفِكْرة الرَّهِيبَة
أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أَهِيمَ وَحِيداً فِي الْعالَمِ، أَيُّهَا الْقَيْصَر.
لَمْ أَعُدْ أُحِسُّ الْمُتْعَةَ فِي سُرْعَةِ الْجَوَاد،
ولاَ في انْتِزَاعِ النَّفَائِسِ، وفي الملابِسِ الْفَاخِرَة
لا أُبَالِي كَثِيراً بِالْجُيُوبِ الْمُتْخَمَة...
فَمَنْ ذَا الَّذِي سَيُشَارِكُنِي ثَرْوَتِي؟
وَأَمَامَ مَنْ سَأَتَبَاهَى بِشَجَاعَتِي؟
وَأَمَامَ مَنْ سَأَسْتَعْرِضُ مَلابِسِي؟

فَلْتَأْذَنْ لِي بِالذَّهَابِ إِلَى سُهُوبِ الْفُولْجَا،

لأَعِيشَ حَيَاةَ قُوزَاقِيٍّ حُر.
فَرُبَّمَا فَقَدْتُ رَأْسِيَ الْمَحْمُومَ هُنَاكَ فِي إِحْدَى الْمَعَارِك،
رُبَّمَا تَحَطَّمَتْ عَلَى يَدِ تَتَرِي،
وَاسْتَوْلَى الْكُفَّار
عَلَى سَيْفِيَ الْبَاتِرِ وَجَوَادِيَ الأَصِيل
وَسَرْجِيَ النَّفِيسِ ذِي الطِّرَازِ الْجَرْكَسِي.
وَحَوَالَيَّ تَحْتَشِدُ وَتَنْعبُ الغِرْبَان،
وَعَلَى عِظَامِيَ الْمَهْجُورَةِ تَسْقُطُ الأَمْطَارُ الْغَزِيرَة،
وَيَتَنَاثَرُ رُفَاتِي الَّذِي لَمْ يُدْفَن
عَبْرَ السُّهُوبِ مَعَ الرِّيَاحِ الْعَاصِفَة...»

عِنْد هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَجَابَ الْقَيصَرُ ضَاحِكا:
«يَا خَادِمِي الأَمِين، سَأُزِيلُ الامَك،
وَسَيَأْتِي الْقَيصَرُ لِمَعُونَتِكَ فِي حُزنِك.
فَلْتَأخُذْ خَاتمِي الْيَاقُوتَ وَهَذِهِ الْقِلادَة ــ
إِنَّهَا مِنَ اللُّؤْلُؤِ الَّذِي يُبْهِجُ النَّظَر،
وَلْتَبْحَثْ عَنْ سَيِّدَةٍ بَارِعَةٍ كَخَاطِبَة
لِتَحْمِلَ هَذِهِ الْهَدَايَا الْغَالِيَةِ عَلَى عَجَل
إِلَى سَيِّدَتِكَ الْجَمِيلَةِ «اليونا دميتريفنا»:
فَلَوْ قَبِلَتْكَ، يَا فَتَايَ، فَلْتَعْقِدْ حفل الزِفَاف،
وَإِنْ لَمْ تَقْبلْكَ، فَلا يَئِن مِنْكَ الْقَلْب.»

مَرْحَباً بِكَ، كُلَّ التَّرحِيبِ، أَيُّهَا الْقَيْصَر ايفان فاسيليفيتش!

لَقَدْ خَدَعَكَ الْيَوْمَ عَبْدُكَ الْمَاكِر!
وَآهٍ، لَقَدْ كَتَم عَنْ قَيْصَرِهِ الْحَقِيقَة.
فَهوَ لَمْ يُخْبِرْكَ أَنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ الْجَمِيلَة
هِيَ زَوْجَةُ رَجُلٍ آخَر، قَرِينَةُ أَحَدِ التُّجَّار،
وَأَنَّهَا قَد زُفَّتْ إلَى زَوْجِهَا فِي الْكَنِيسَة
وِفْقاً لِطُقُوسِنَا، وِفْقاً لِلْقَانُونِ الْمَسِيحِي.

فَاشْرَبُوا عَمِيقاً، يَا فِتْيَانِي! وَغَنُّوا عَالِياً فِي مَرَح!
تَعَالوا، أَيُّهَا الْفِتْيَان، اعزِفُوا عَلَى السَّنْتُور!
وَاطْرُدُوا الْهُمُومَ بِمُوسِيقَاكُم الرَّنَّانَة،
وَلْتَبْعَثُوا الْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ مُضِيفِنَا وَزَوْجَتِه الْجَمِيلَة!

(2)

فِي السُّوقِ، جَلَسَ التَّاجِرُ الشَّاب،
«ستيبان بارامونوفيتش»، فَارِعاً وَسِيماً،
يَنْتَمِي إلَى عَائِلَة «كَالاشْنيكُوف» الأَمِينَة.
كَانَ يَعْرِضُ بَضَائِعَه الْحَرِيرِيَّةَ الْبَهِيجَةَ فِي أَنَاقَة،
وَيُحْصِي نُقُودَه بِعِنَايَة،
وَفِي صَوْتٍ رَخِيمٍ يَدْعُو الْمَارَّة.
وَلَكِنَّه حَظُّ التَّاجِرِ الْعَاثِر:
لَمْ يَتَوَقَّفْ أَحَدٌ مِنَ الأَغْنِيَاءِ أَمَامَ دُكَّانِه،
وَمَا نَظَرَ إلَيْهِ أحد، وَلا اشْتَرَى أَحَدٌ مِنْ بَضَائِعِه.

وَفِي الْكَنَائِسِ دَقَّتْ أَجْرَاسُ الصَّلاةِ الْمَسَائِيَّة،
وَفَوْقَ قِبَابِ الْكِرِيْمِلِين تَوَهَّجَتِ الأَشِعَّةُ الأَخِيرَةُ لِلشَّمْس،
تَعْدُو السُّحُبُ الرَّمَادِيَّةُ وتُغَطِّي السَّمَاء،
تَدْفَعُهَا رِيَاحٌ شَادِيَةٌ مُعْوِلَة...
سَرْعَانَ مَا خَلَتْ سَاحَةُ السُّوقِ الْكَبِير
وَيُغْلِقُ التَّاجِرُ «ستيبان بارامونوفيتش» وَرَاءَه
الْبَابَ الْخَشَبِيَّ الْهَائِل،
وَيُدِيرُ الْمِفْتَاحَ الْمُزَخْرَفَ فِي الْقُفْلِ الْخَارِجِي،
وَيَتْرُكُ بِجَانِبِ الدُّكَّانِ كَلْبَه الْحَارِسَ الْعَجُوز،
مَرْبُوطاً فِي سِلْسِلَةٍ حَدِيدِيَّة، وَحْشاً مُزَمْجِرا.
وَيَمْضِي التَّاجِرُ، مُسْتَغْرِقاً فِي التَّفْكِير،
إلى بَيْتِه وَزَوْجَتِه عَبْرَ نَهْرِ مُوسكُوفَا.

سَرْعَانَ مَا يَصِلُ إِلَى مَنْزِلِه الشَّاهِقِ الْجَمِيل،
وَيَتَطَلَّعُ مَدْهُوشاً حَوَالَيْه:
فَزَوْجَتُه الشَّابَّةُ الْجَمِيلَةُ لا تَأْتِي لاسْتِقْبَالِه،
وَالْمِنْضَدَةُ عَارِيَةٌ، بِلا غِطَاء،
وَأَمَامَ الأَيْقُونَةِ تُومِضُ شَمْعَةٌ وَحِيدَة.
فَيُنَادِي الْخَادِمَةَ الْعَجُوز:
«تَعَالي، انطِقِي وَقُولِي، يَا «يريمييفْنَا»»،
أَيْنَ ذَهَبَتْ سَيِّدَتُكِ، فَلا أَرَاهَا؟
أَيْنَ زَوْجَتِي «اليونا دميتريفنا»؟
وَأَطْفَالِي الأَحِبَّاءُ، هَلْ أَصَابَهُم التَّعَب،

مِنَ الْمُبَارَيَاتِ الصَّاخِبَة، من اللّعِبِ وَالرِّيَاضَة؟
هَلْ ذَهَبُوا إلَى الْفِرَاشِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُبَكِّرَة؟»

«آهٍ، يَا سَيِّدِي الْعَزِيز، ستيبان بارامونوفيتش،
إنَّه أَمْرٌ شَدِيدُ الْغَرَابَةِ مَا سَأَحْكِيه لك:
لَقَدْ ذَهَبَتْ «اليونا دميتريفنا» إلَى صَلاةِ الْمَسَاء،
وَلَكِنَّ الْقِسِّيسَ وَزَوْجَتَه عَادَا مِنَ الْكَنِيسَة،
وَأَشْعَلا شَمْعَةً وَجَلَسَا لِلْعَشَاء،
وَلَمْ تَعُدْ – بَعْد – السَّيِّدَةُ الْجَمِيلَة...
أَمَّا الصِّغَارُ فَلَيْسوا فِي اللّعب،
وَلا نَائِمِينَ فِي السَّرِير،
إنَّهُم يَنْتَحِبُون وَيُعْوِلُون،
يَصْرُخُونَ أُمَّهُم وَيُنَادُونَهَا.»

اعْتَرَت التَّاجِرَ الشَّاب كالاشنيكوف
فِكْرَةٌ مُرْعِبَة.
فَوَقَفَ إلَى النَّافِذَةِ بِقَلْبٍ يَضْطَرِب،
مُحَدِّقاً فِي الشَّارِعِ الْمُغَطَّى بِالثُّلوجِ، قَلِقا.
كَانَ الظَّلامُ فِي الْخَارِجِ، وَالثُّلُوجُ تَسَّاقَط،
حَتَّى غَطَّت آثَارَ الْمَارَّة.

فَجْأَة، يَسْمَعُ بَاباً يُصْفَقُ فِي عُنْف،
وَتَأْتِي إلَى أُذُنَيْهِ خُطْوَاتٌ مُهَرْوِلَة...
فَيَسْتَدِير، وَهُنَاك – فَلْتُسَاعِدْنَا السَّمَاءُ جَمِيعا! –

كَانَتْ تَقِفُ زَوْجَتُه الشَّابَّةُ الْجَمِيلَة ـ شَاحِبَةَ الْوَجْهِ كَانَتْ تَقِف،
بِلا غِطَاءِ الرَّأسِ، مَحْلُولَةَ الضَّفَائِر
وَقَدْ تَنَاثَرَ عَلَيْهَا الصَّقِيعُ وَالثَّلْجُ الذَّائِب،
وَفِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةُ مَنْ فَقَدَ الْعَقْل،
وَشِفَاهُهَا الشَّاحِبَةُ تُكَوِّنُ كَلِمَاتٍ خَرْسَاء...

«أيْنَ كُنْتِ تَهِيمِينَ، يَا زَوْجَة، يَا زُوْجَتِي؟
فِي أَيَّةِ سَاحَةٍ أَو مَيْدَانٍ كُنْتِ تَتَسَكَّعِين، هَيَّا، انْطِقِي،
إلَى أَن تَعَرَّت الرَّأْسُ وَحُلَّت الضَّفَائِر
وَتَمزَّقَت الثِّيَابُ وَأَصَابَتْهَا الْفَوْضَى؟
أَعَائِدَةٌ ـ الآنَ ـ مِنْ حَفْلٍ دَاعِر؟
أم كُنْتِ تُشَارِكِينَ أَبْنَاءَ النُّبَلاءِ، يَا زَوْجَة، فِي احْتِفَالٍ مَخْمُور؟
لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَسَمُنَا عَلَى الإِخْلاص،
لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْ تَبَادَلنَا خَاتَمَيْنَا
أَمَامَ المَذْبح المُقَدَّسِ يَوْمَ الزِّفَاف.
فَلأَضَعَنَّكِ خَلْفَ الأَبْوَابِ الْخَشَبِيَّةِ، أَيَّتُهَا الزَّوْجَة،
وأُوصِد عَلَيْكِ بِإِحْكَامٍ، بِقُفْلٍ حَدِيدِي.
لَنْ يَرَاكِ ضَوْءُ النَّهَارِ مَرةً أُخْرَى، أَبَدا،
لاَ، وَلَنْ يُلْقَى بِالْوَصْمَةِ عَلَى اسْمِي الطَّاهِر.»

عِنْدَمَا سَمِعَت الزَّوْجَةُ الشَّابَّةُ الْبَائِسَةُ هَذِهِ الْكَلِمَات الْمَرِيرَة،
أَخَذَت فِي الارْتِعَادِ كَأَورَاقِ الْحُورِ الرَّعَّاش،
أَخَذَت فِي الارْتِعَادِ وَالنَّشِيجِ وَالنَّحِيب،
وَأَسْفَلَ خَدَّيْهَا انْحَدَرَت دُمُوعٌ مَرِيرَة،

وَخَرَّت عَلَى رُكْبَتَيْهَا عِنْدَ قَدَمَيْ زَوْجِهَا.

«آهِ يَا سَيِّدِي، يَا مَلِيكِي، آهِ يَا شَمْسِيَ السَّاطِعَة!
فَلْتَسْمَعْ لِي، وَإِلاَّ فَاقْتُلْنِي الآنَ هُنَا.
فَكُلُّ كِلْمَةٍ قُلْتَهَا لِزَوْجَتِكَ سَيِّئَةِ الطَّالِع
هِيَ سِكِّينٌ مِنْ صُلْبٍ تَخْتَرِقُ قَلْبَهَا.
لَيْسَ الْمَوْتُ مَا أَخَافُ، مَهْمَا كَانَ قَاسِيا،
وَلَيْسَتِ الشَّائِعَات الْفَاسِدَةُ هِيَ مَا يُرْعِبُنِي،
إِنَّهَا تَعَاسَةُ سَيِّدِي هِيَ مَا أَخْشَى.

كُنْتُ عَائِدَةً مِنَ الْكَنِيسَةِ اللَّيْلَة،
كُنْتُ وَحِيدَةً عِنْدَمَا تَخَيَّلْتُ أَنَّنِي سَمِعْت ـ
خَلْفِي ـ تَمَاماً ـ خُطوَاتِ شَخْصٍ مَا قَادِمَة.
الْتَفَتُّ سَرِيعاً، وَآهٍ، كَمِ ارْتَعَشَتْ رُكْبَتَاي! ـ
كَانَ رَجُلاً، يَا سَيِّدِي، يَعْدُو خَلْفِي.
فَأَسْدَلْتُ النِّقَاب عَلَى وَجْهِي سَرِيعا.
وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الصَّفِيقَ أَمْسَكَ بِيَدَيَّ فِي يَدَيْه،
وَقَالَ لِي فِي هَمْسٍ نَاعِم:
«لِمَاذَا تَخَافِينَ مِنِّي، يَا فَاتِنَتِي؟
إِنَّنِي لَسْتُ لِصّاً، وَلا قَاطِعَ طَرِيق،
بَلْ حَارِس الْقَيْصَر، كِيرِيبِيفِيتش،
مِنْ عَائِلَةٍ وَبَيْتِ «ماليوتا...»
مَعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ازْدَدْتُ رُعْبا،

وَغَابَ رَأْسِي الْبَائِسُ فِي دوَّامَةٍ وَأَعْتَمَ بَصَرِي...
ثُمَّ احْتَضَنَنِي وَقَبَّلَنِي كَثِيرا،
شَدَّنِي بِقُوةٍ إِلَيْهِ، وَهَمَس:
«تَكَلَّمِي وَقُولِي لِي، يَا حَبِيبَتِي، مَا الَّذي تَرْغَبِينَ فِيه؟
تَكَلَّمِي وأجيبي، وَسَوْفَ يكُونُ لكِ!
أَهِيَ اللّآلِئُ أَمِ الذَّهَبُ مَا يَهْفُو قَلْبُكِ إِلَيْه،
أَهوَ الْحَرِيرُ أَمِ الْقَصَبُ مَا تُرِيدِينَ مِنِّي؟
سَوْفَ أَجْعَلُكِ تَلْبَسِينَ، يَا حَبِيبَتِي، كَأَمِيرَةٍ حَقِيقِيَّة
وَسَوْفَ تَحْسدُكِ كُلُّ الزَّوْجَاتِ فِي مُوسْكُو!...
فَلا تَدَعي حُبِّي يَظَلُّ مَجَّانِيا،
أَحِبِّينِي، قَبِّلِينِي، هَيَّا، قَبْلَ أَنْ نَفْتَرِقَ اللَّيْلَة!»

ثُم قَبَّلَنِي، مَرَّاتٍ كَثِيرَة،
وَحَتَّى الآن، يَا سَيِّدِي، بَعْدَمَا عُدْتُ سَالِمَة
إِلَى مَنْزِلِ زَوْجِي، لا تَزالُ قبلاتُه الْمَلْعُونَة
تَشْتَعِلُ، مِثْلَ لَهَبٍ مُتَوهِّجٍ، عَلَى خَدَّيَّ وَجَبْهَتِي.
وَعِنْدَ الأَبْوَابِ، رَأَيْتُ زَوْجَاتِ الْجِيرَانِ يَقِفْن
وَقَدْ حَدَّقْنَ فِينَا، وَضَحِكْنَ فِي احْتِقَار...

خَلَّصْتُ نَفْسِي أَخِيراً مِنْ قَبضَتِه،
وَهَرَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ، يَا سَيِّدِي...
وَبَقِيَتْ فِي يَدِ الْوَغْدِ هَدَايَاكَ لِي،
خِمَارَايَ الْحَرِيرِيَّانِ وَإِزَارِيَ الْخَارِجي.

إنَّني بَريئَةٌ، إذِ ارْتَكَبَ خَطَأً فَادِحا
فَلَطَّخَ بِالْعَارِ نَفْسِيَ الْمُخْلِصَة...
فَأَي حَكَايَا بَهِيمِيَّةٍ سَوْفَ يَنْسِجُهَا الْجِيرانُ عَنِّي؟
وَأَمَامَ مَنْ سَتُوَاتِينِي الْجُرْأَةُ عَلَى الظُّهُور؟...

فَأَرْجُوكَ، احْمِنِي مِنْ الأَلْسِنَةِ الْحَاقِدَة،
لاَ تَدَعْهُم يَسْخَرُونَ مِنْ زَوْجَتِكَ الْمُخْلِصَة!
فَبِمَنْ يَجِبُ أَنْ أَثِقَ سِوَى بِنَفْسِكَ الْحَنُونَة؟
وَلِمَنْ ـ غَيرِك ـ يُمْكِنُنِي أَنْ أَلْجَأَ طَلَباً لِلْمَعُونَة؟.
ذَلِكَ أَنَّنِي لَكَ وَحْدَكَ فِي هَذَا الْعَالَم،
فَوَالِدَايَ الْعَزِيزَانِ يَرْقُدَانِ فِي الْقَبْر،
فِي الْقَبْرِ الْبَارِدِ، الْمُظْلِمِ، يَرْقُدَانِ، وَاأَسَفَاه!
أَمَّا شَقِيقَاي، فَأَكْبَرُهُمَا قَدْ رَحَل
إِلَى شَاطِىءٍ بَعِيدٍ وَلَمْ أَعُدْ أَرَاه،
وَالأَصْغَرُ، الَّذِي تَعْرِفُه، لا يَزَالُ فِي عُمْرِ الطُّفُولَة،
نَعَم، عُمْرِ الطُّفُولَةِ، وَحِكْمَتِهَا أَيضا...»

هَكَذَا تَحَدَّثَت «اليونا دميتريفنا»،
وَسَفَحَتْ دُمُوعاً مَرِيرَةً وَنَاحَتْ عَلَى حَظِّهَا.
أَرسَلَ التَّاجِر ستيبان بارامونوفيتش
عَلَى عَجَلٍ إِلَى شَقِيقَيْه الصَّغِيرَين،
فَأَتَى الشَّقِيقَانِ وَانْحَنَيَا لَه،
وَهَكَذَا تَكَلَّمَا، الاثْنَان:

«عِنْدَ اسْتِدْعَائِكَ لَنَا أَتَيْنَا، يَا أَخَانَا الأَكْبَر،
فَأَخْبِرْنَا بِصِدْق، أَيُّ كَارِثَةٍ حَلَّت بِك،
حَتَّى نَجْتَمِعَ لَدَيْكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ المتَأَخِّرَة
فِي لَيْلَةٍ ثَلْجِيَّةٍ مِنْ لَيَالِي الشِّتَاء؟...»

«أَنْصِتَا لِي، يَا أَخَوَيَّ، وَسَأُخْبِرُكُمَا بِكُلِّ شَيء:
لَقَدْ أَصَابَتْنِيَ الْيَوْم مُصِيبَةٌ هَائِلَة،
إذ أَنَّ «كيريبيفيتش»، حَارِسَ الْقَيْصَر،
قَدْ لَطَّخَ بِالْعَارِ اسْمَنَا الطَّاهِر،
وَلا يَسْتَطِيعُ قَلْبُ رَجُلٍ صَادِقٍ أَنْ يَحْتَمِلَ مِثْلَ هَذَا الْبَغْي،
فَمِثْلُ هَذِهِ الإِهَانَةِ لا تُغْتَفَر.
سَتَكُونُ الْمَعْرَكَةُ الأُولَى فِي الصَّبَاح،
فِي حُضُورِ الْقَيْصَرِ نَفْسِه، عِنْدَ نَهْرِ موسكوفا...
سَوْفَ أَشْتَبِكُ مَعَ حَارِسِ الْقَيْصَر،
سَوْفَ أُقَاتِلُ الْوَغْدَ الْمُحْتَالَ حَتَّى الْمَوْت!
وَإِذَا مَا قُتِلْتُ، يَا أَخَوَيَّ الْعَزِيزَين،
فَلْتَخْرُجَا بَدَلاً مِنِّي، وَلْتُقَاتِلا مِنْ أَجْلِ الْحَق،
قَاتِلا مِنْ أَجْلِ الشَّرَفِ وَالْحَقِّ وَلا تَخَافَا!
إِنَّكُمَا أَصْغَرُ مِنِّي وَأَكْثَر حَيَوِيَّة،
خَطَايَاكُمَا أَقَل، وَرُوحَاكُمَا طَاهِرَتَان،
وَلَعَلَّ الرَّبَّ أَنْ يَكُونَ بِكُمَا رَحِيما».

رَدَّ الشَّقِيقَان قَائِلَيْن:

«أَيْنَمَا تَهُبُّ الرِّيَاحُ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلا،
تَنْدَفِعُ الْغُيُومُ، مُطِيعَةً، مُسْرِعَةً.
وَعِنْدَمَا يُنَادِي الصَّقرُ الأَزرقُ الْجَنَاحِ بِصَرْخَةٍ خَشِنَةٍ
عَلَى صِغَارِهِ إِلَى حَيْثُ يَرقُدُ القَتِيلُ فِي الْحَقْل،
عِنْدَمَا يَجْمَعُهُم إِلَى حَقْلٍ مُلَطَّخٍ بِالَّدم،
فَعَلَى نِدَائِه يَأْتُونَ بِلا إِبْطَاء.
وَأَنْتَ أَبٌ أَمِينٌ لَنَا، يَا أَخَانَا الْعَزِيز،
فَلَكَ الأَمرُ، وَعَلَيْنَا التَّنْفِيذ،
وَلْتَطْمَئِن أَنَّنَا سَنَقِفُ مَعَك.»

* * *

فَاشْرَبُوا عَمِيقاً، يَا فِتْيَانِي! وَغَنُّوا عَالِياً فِي مَرَح!
تَعَالوا، أَيُّهَا الْفِتْيَان، اعْزِفُوا عَلَى السَّنْتُور!
وَاطْرُدُوا الْهُمُومَ بِمُوسيقَاكُم الرَّنَّانَة،
وَلْتَبْعَثُوا الْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ مُضِيفِنَا وَزَوْجَتِهِ الْجَمِيلَة!

(3)

فَوْقَ مُوسْكُو الْعَظِيمَةِ، ذَاتِ الْقِبَابِ الذَّهَبِيَّة،
فَوْقَ جُدْرَانِ الْكِرِيمْلِين، فَوْقَ جُدْرَانِهِ الْحَجَرِيَّةِ الْبَيْضَاء،
أَشْرَقَ الصَّبَاحُ مُبكِّراً فِي ثِيَابِهِ الْقُرمزِيَّة،
وَتَسَلَّلَ فَوْقَ أَعَالِي الْبُيُوتِ مَرِحا،
وَهوَ يُطَارِدُ الْغُيُومَ بِلا هَوَادَة.

يَنْشُرُ الصَّبَاحُ ضَفَائِرَهُ الذَّهَبِيَّةَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ الزَّرْقَاء،
وَيَغْسِلُ وَجْهَه فِي الثُّلُوجِ النَّاصِعَة،
وَكَمَا حَسْنَاء صَغِيرَة مُتَبَاهِيَة تَتَطَلَّعُ فِي مِرآة
فإنَّه يَتَطَلَّعُ إلَى نَفْسِهِ فِي السَّمَاوَات الصَافِيَة.
فَلِمَاذَا أَنْتَ صَاحٍ، أَيُّهَا الصَّبَاحُ الْقُرمُزِيُّ، مُشْرِقاً هَكَذَا؟
وَلِمَاذَا أَنْتَ فَرِحٌ، أَيُّهَا الصَّبَاحُ الْمبكِّرُ، مُنْتَعِشاً هَكَذَا؟

مِنْ كُلِّ أَرْجَاءِ مَدِينَةِ مَوسْكُو الْقَدِيمَة
أَتَى الْمُقَاتِلُونَ الْبَوَاسِل، أَتَى الْمُقَاتِلُون الشُّجْعَان،
مِنْ أَجْلِ الْمُلاكَمَاتِ فِي الْعُطْلَة
تَجَمَّعُوا عِنْدَ نَهْرِ مُوسْكُوفَا الْمُتَجَمِّد.
وَأَتَى الْقَيْصَرُ نَفْسُه مَعَ حَاشِيَتِه،
فُرْسَانِه جَمِيعاً وَنُبَلائِه،
أَمَرَهُم أَنْ يَمدُّوا سِلْسِلَةً فِضِّيَّةً طَوِيلَة،
سِلْسِلَةً فِضِّيَّةً طَوِيلَةً مُتَلاحِمَةً بِالذَّهَب،
وَيُحَدِّدُوا بِهَا عَلَى النَّهْرِ الثَّلْجِي
سَاحَةً مَفْتُوحَةً شَاسِعَةً لِلْمُبَارَاةِ الرِّيَاضِيَّة.
ثُمَّ أَمَرَ الْقَيْصَرُ الْعَظِيمُ ايفان فاسيليفيتش
الْمُنَادِينَ أَنْ يُعْلِنُوا بِصَوْتٍ جَهورِي:
«هَيَّا تَقَدَّمُوا، أَيُّهَا الْفِتْيَان الشُّجْعَان، هَيَّا تَقَدَّمُوا وَقَاتِلُوا
لِتَبْعَثُوا السُّرُورَ فِي قَلْبِ الْقَيْصَرِ الطَّيِّبِ، أَبِينَا!
هَيَّا تَقَدَّمُوا، هَيَّا، إلَى حَلَقَةِ الْمُلاكَمَة،

فَمَنْ سَيكْسَب المُبَارَاة سَيُكَافِئُه الْقيْصَر،
وَمَنْ سَيَخْسَرهَا فَسيَغْفِر لَه الرَّب!»

بِلا كِلْمَةٍ تَقَدَّمَ كيريبيفيتش إلَى الأَمَام،
وَانْحَنَى إلَى الْقيْصَرِ صَامِتا،
طَرحَ عَنْ كَتفَيْهِ مِعْطَفَه الْمَخْمَلِي،
وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخْذِهِ مُتَبَاهِيا،
أَصْلَحَ قُبَّعتَه القُرمُزِيَّة،
وَوَقَفَ مُنْتَظِراً مَنْ يَتَحَدَّى...
مَرَّةً، وَاثْنَتَيْن، وَثَلاثاً دَوَّت صَيْحَةُ الْمُنَادِي،
وَلكِنَّ المُقَاتِلينَ، الأَنْدَادَ فِي الْبَسَالَة،
كَانُوا يَتَغَامَزُونَ، فَحَسْب، وِلا يَتَحَركُون.

حَوْلَ الْحَلقَةِ سَارَ الْحَارِسُ الْوَقِح،
وَنَادَى خُصُومَه بِاحْتِقَار:
«لِمَاذَا أَنْتُم جُبَنَاء هَكَذا، أَيُّهَا الرِّجَال، لِمَاذَا أَنْتُم مُتَرَدِّدُون، انْطِقُوا؟
لاَ تَخَافوا، سَوْفَ أُطْلِقُكُم مَعَ حَيَاتِكُم،
سَأَتْرُكُ لَكُم الْوَقْتَ لِتَنْدَمُوا عَلَى خَطَايَاكُم،
فَدَعونَا ـ فَحسبْ ـ نَتَقَاتَل وَنُمْتِع الْقيْصَر.»

فَجْأَةً انْشَقَّ الْجَمْعُ الصَّامِت،
وَتَقَدَّم التَّاجِر ستيبان بارامونوفيتش
الَّذِي يَنْتَمِي بِالَّلقَبِ وَالْعَائِلَةِ إلَى آل كالاشنيكوف
إلَى الأَمَامِ، فِي جُرأَةٍ، حَتَّى تَرَاه كُلُّ الْعُيُون.

انحنَى ستيبان بارامونوفيتش أَولاً لِلْقيْصَر،
ثُم إلَى الكرِيمْلين وَكَنَائِسة كُلِّهَا،
ثُم انْحَنَى إلَى الشَّعْبِ الرُّوسِي.
كَانَتْ عَيْنَاه تَشْتَعِلان كَعَيْنَي صَقْر،
ثَبَّتَهُمَا بإِحْكَامٍ عَلَى الْحَارِسِ الشَّاب،
وَاتَّخَذَ مَكَانَه فِي مُوَاجَهَتِه فِي اسْتِعْلاء.
يَسْحَبُ قُفَّازَاته، قُفَّازَاتِ الْمُلاكَمَة،
وَيَفْرِدُ كَتِفَيْه الْقَوِيَّيْن مُتَبَاهِيا،
وَيُمَسِّدُ لِحْيَتَه الكَثَّةَ فِي بُطْء.

تَكَلَّمَ الْحَارِسُ آنئِذٍ، وَهَذَا مَا قَال:
أَخْبِرْنِي، أَيُّهَا الْفَتَى الشُّجَاع، مِنْ أَيِّ بَيْتٍ أَنْت؟
وَمَا هُوَ لَقَبُك، تَكَلَّمْ وَأَخْبِرْنِي بِصَرَاحَة،
وَإلاَّ فَكَيْفَ سَأَعْرِفُ، يَا فَتَاي،
عَلَى مَنْ سَيُرَتِّلُ الْكَهَنَةُ صَلَوَاتِهِم،
وَكَيْفَ سَأَتَبَاهَى بِانْتِصَارِي.»

وَرَدَّ ستيبان بارامونوفيتش هَكَذَا:

«إِنَّنِي أُعْرَفُ بِاسْم كالاشنيكوف،
كَانَ رَجُلاً أَميناً مَنْ أَنْجَبَنِي،
وَقَدْ عِشْتُ حتَّى الآن وِفْقاً لِتَعْلِيمَاتِ الرَّب:
فَلَم أَجلِب الْعَارَ لِزَوْجَةِ رَجُلٍ آخَر، أَبَدا،
وَلَمْ أَسْتَرِق الْخَطْوَ، كَلِصٍّ، فِي ظَلامِ اللَّيْلِ، أَبَدا،

وَمَا أَخْفَيْتُ نَفْسِي أَبَداً عَنْ ضَوْءِ النَّهَار...
لَقَدْ قُلْتَ كِلْمَةَ حَقٍّ وَصِدْق:
أَنَّ الكَهَنَةَ سَيُرَتِّلُونَ عَلَى أَحَدِنَا الصَّلاة،
فِي الصَّبَاحِ، أَوِ الظَّهِيرَةِ، لا أَبْعَدَ مِنْ ذَلِك،
أَنَّ أَحَدَنَا سَيَتَبَاهَى بِانْتِصَارِه،
فِي احْتِفَالٍ بَهِيجٍ مَعَ رِفَاقِه الشُّجْعَان.
أَلا فَلْيَشْهَد الشَّعْب، يَا ابْنَ المُحْتَال،
أَنَّنِي أَتَحَدَّاكَ، لا لَعِباً وَمِزَاحا،
بَلْ لأَخُوضَ قِتَالاً حَتَّى نِهَايَتِهِ الْمَرِيرَة!»

وَمَعَ حَدِيثِ التَّاجِرِ، تَحَوَّلَ وَجْهُ كيريبيفيتش
إِلَى الرَّمَادِي، كَمَا ثُلُوج الرَّبِيع،
وَأَظْلَمَت عَيْنُه الوامضةُ تَمَاماً فِي الْحَال،
وَأَسْفَل ظَهْرِه الْقَوِيِّ سَرَتْ قُشَعْرِيرَة،
وَعَلَى شَفَتَيْهِ المُنْفَرِجَتَيْنِ تَجَمَّدَتْ كَلِمَاتُه، بِلا نُطْق....

وَالآنَ، انْفَصَل الْغَرِيمَانِ، صَامِتَيْن،
وَبِلا صَوْتٍ آخَر، بَدَأَ الْقِتَال.

كَانَ كيريبيفيتش الْبَادِىءَ بِاللَّكْم،
لَوَّحَ بِيَدِهِ فِي الْقُفَّازِ وَوَجَّهَ ضَرْبَةً سَاحِقَة
إِلَى التَّاجِرِ الشُّجَاعِ فِي صَدْرِه الْقَوِي.
تَرَنَّحَ ستيبان بارامونوفيتش وَدَاخ،
كَانَ صَلِيبٌ مِنْ النُّحَاسِ يَتَدَلَّى عَلَى صَدْرِه

مَعَ تَذْكَارِ مَدِينَةِ كييف المُقَدَّسَة،
هذَا الصَّلِيبُ مَزَّقَ، عَمِيقاً، لَحْمَهُ الْقَوِي،
وَكَمَا النَّدَى تَسَاقَطَتْ قَطَرَاتُ الدَّمِ تَحْتَه.
وَقَالَ لِنَفْسِهِ، قَالَ التَّاجِرُ الشُّجَاع:
«مَا هُوَ مُقَدَّرٌ أَنْ يَكُونَ سَيَكُون،
وَسَأُوَاصِلُ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، حَتَّى النِّهَايَةِ الأَخِيرَة!»
وَثَبَّتَ نَفْسَهُ مُسْتَعِداً لِلضَّرْب،
وَحَشَدَ قُوتَه، وَبِكُلِّ قُوَاه
وَجَّهَ ضَرْبَةً بِكُلِّ الذِّرَاعِ إِلَى غَرِيمِهِ الْكَرِيه،
ضَرْبَةً كَامِلَةً عَلَى جَانِبِ الرَّأْس.

تَأَوَّه الْحَارِسُ الشَّابُّ فِي ضَعْف،
تَرَنَّحَ وَسَقَطَ إِلَى الأَرْضِ الْجلِيدِيَّة،
إِلَى الأَرْضِ الْجلَيدِيَّةِ، كَصنوبَرَةٍ، سَقَط
كَصنوبَرَةٍ هَزِيلَةٍ فِي بُسْتَانٍ شِتَائِي
قَطَعَتْهَا فَأْسٌ مِنْ جُذُورِهَا الْعَمِيقَة...
إِلَى الأَرْضِ سَقَط، وَارْتَمَى هُنَاكَ، مَيِّتا.

بِهَذَا المَنْظَرِ الرَّهِيبِ، قَهَرَ الْغَضَبُ الأَعْمَى
وَالضَّارِي الْقَيْصَرَ المَسِيحِي،
عَقَدَ حَاجِبَيْه، وَضَرَبَ بِقَدَمِه،
وَأَمَرَ رِجَالَه أَنْ يُقَيِّدُوا التَّاجِرَ الشُّجَاع،
وَأَنْ يُحْضِرُوا الْمُخَادِعَ أَمَامَه فِي الْحَال.

قَالَ الْقَيْصَرُ الْعَظِيمُ ايفان فاسيليفيتش:
«أَجِبْنِي بِأَمَانَةٍ، فَأَنَا أُرِيدُ الْحَقِيقَةَ:
أَكَانَ بِنِيَّةٍ مُبيَّتَةٍ أَم ضِدَ إِرَادَتِك
أَنْ قَتَلتَ بِبرُودٍ أَكْثَرَ رِجَالِي إِخْلاصا،
حَارِسِي، كيريبيفيتش؟»

«سَأُخْبِرُكَ بِالْحَقِيقَةِ، أَيُّهَا الْقَيْصَرُ الْعَادِل:
بِإِرَادَتِي قَتَلْتُ رَجُلَكَ الْمُخْلِص،
وَلَكِنِّي لَنْ أُخْبِرَكَ لِمَاذَا فَعَلْتُ ذَلِك،
فَلِلرَّبِّ وَحْدَه سَوْفَ أَبُوحُ بِالسِّر...
فَلْتَحْكُم عَلَيَّ بِالْمَوْتِ، لِتَأْمُرنِي أَنْ أَضَعَ رأْسِي
عَلَى خَشَبَةِ الْجَزَّارِ حَتَّى تَقْطَعَهَا الْفَأْس،
وَلكِنِّي أَتوسَّلُ إِلَيْكَ، أَيُّهَا الْقَيْصَر،
أَنْ تكُونَ رَؤُوفاً بِزَوْجَتِي الأَرمَلَةِ وَابْنَيَّ الْعَزِيزَيْن،
وَأَنْ تكُونَ رَحِيماً بِأَخَوَيَّ الاثْنَيْن.»

«إِنَّه أَمْرٌ طَيِّبٌ حَقاً، يَا فَتَايَ الشُّجَاع وَالأَمِين،
وَحَسَنٌ لكَ، أَيُّهَا التَّاجِر الأَمِين،
أَنْ أَجَبْتَنِي بِهَذَا الصِّدْق.
فَلِطِفْلَيْكَ اليَتِيمَيْنِ وَزَوْجَتِكَ الأَرمَلَة
سَوْفَ أُخَصِّصُ نَصِيباً مِنْ ثَروَتِي،
وَعَلَى طُولِ وَاتِّسَاعِ الْمَمْلَكَةِ الرُّوسِيَّةِ، يَا فَتَاي،
سَوْفَ يُتَاجِرُ شَقِيقَاكَ، ابْتِدَاءً مِنْ الْيَوْمِ فَصَاعِداً،

بِلا ضَرَائِبَ أَوْ رُسوم.
أَمَّا انْت، أَيُّهَا الْقَلْبُ الشُّجَاع، فَعَلَى الْخَشَبَةِ سَتكُون
التَّضْحِيَةُ بِرَأْسِكَ الْجَامِحَةِ بِأَمْرِ الْقَيْصَر،
سَيكُونُ السَّيْفُ مَشْحُوذاً وَبَاتِرا،
وَسَيرْتَدِي الْجَلادُ مَلابِسَ غَالِيَةً، وَفَاخِرَة،
وَسَآمُرُهُم أَنْ يَدُقُّوا، مِنْ أَجْلِك، الْجَرَسَ الكَبير
لِتَعْلَمَ كُلُّ موسكو، وكُلُّ الشَّعب
أَنَّ قَيْصَرَكَ قَدْ مَنَحَكَ بَعْضَ رِضَائِه...»

تَنْسَابُ الْجُمُوعُ الطَّيِّبَةُ إِلَى مَيْدَانِ السُّوق،
وَفَوقَهَا الإِيقَاعُ الْجَنَائِزِيُّ لِلْجَرَسِ يُدَوِّي، وَيَطْفُو،
وَيَنْشُرُ أَنْبَاءَ الشَّرِّ عَلَى طُولِ مُوسكو.
عَلَى مُرْتَفَعٍ مِنَ الأَرضِ تَنْتَصِبُ الْمِقْصَلَةُ الْخَشَبِيَّة،
وَالْجَلَّادُ، فِي قَمِيصِه القُرمُزِيِّ بِأَزْرَارِه المرصَّعَةِ بِالْجَوْهَر،
يَتبخْتَرُ أَمَامَ الْجُمُوع
وَيَنتَظِرُ ضَحِيَّتَه فِي مَرَحٍ حَقِيقِي.
فَأْسُه مَشْحُوذَةٌ وَحَادَّةٌ وَبَاتِرة،
وَيَفْرُكُ يَدَيْه فِي فَرَحٍ وَاضِح....
وَالتَّاجِرُ الشُّجَاعُ كالاشنيكوف
يُعَانِقُ شَقِيقَيْه وَيُلْقِي لَهُم بِالْوَدَاع.

«آه يَا أَخَوَيَّ، كَمْ أَنْتُمَا عَزِيزَانِ عَلَيَّ!
دَعَانِي أَحْتَضِنكُمَا بِقُوَّةٍ، فَلْنَتَعَانَقِ الآن،

فَالآن، سَنَنْفَصِلُ إلَى الأَبَد...
انْحَنِيَا عَنِّي لزَوْجَتِي اليونا دميتريفنا،
وَانْحَنِيَا أَمَامَ بَيْتِ أَبَوَيْنَا الْعَزِيزَين،
وَانْحَنِيَا أَمَام أَصْدِقَائِنَا وَرِفَاقِنَا جَمِيعا،
ثُم صَلِّيَا مِنْ أَجْلِي فِي الْكَنِيسةِ المُقَدَّسَة،
صَلِّيَا مِنْ أَجْلِ أَخِيكُمَا وَرُوحِه الْخَاطِئَة!»

نُفِّذَ الإعْدَامُ فَي التَّاجِرِ الشُّجَاع،
كَانَ إعْدَاماً قَاسِياً وَمَصْدَرَ عَار:
فَفَوْقَه، رَفعَ الْجَلَّادُ فَأْسَه،
وَتَدَحْرَجَتْ رَأْسُه أَسْفَلَ الْخَشَبَةِ الدَّمَوِيَّة.

وَرَاءَ نَهْرِ مُوسكوفا دَفَنُوه،
فِي الْحَقْلِ الْفَسِيحِ الْمَمْدُودِ حَيْثُ تَتَلاقَى طُرقٌ ثَلاث:
إلَى مُدُنِ «تُولا»، و«ريازان»، و«فلاديمير»،
وَفَوْقَ مَدْفَنِه كَوَّمُوا كَوْمَةً مِنْ تُرَابٍ مُنَدَّى،
نَصَبُوا عَلَيْهَا صَلِيباً خَشَبِيّاً،
وَلا تَهْدَأُ الرِّيَاحُ الْعَاصِفَة،
فَفَوْقَ قَبْرِه الْمَجْهُولِ تَلْهُو وَتَشْدُو.
وَيَمُرُّ الشَّعْبُ الطَّيِّبُ عَلَى الْقَبْر:
عِنْدَمَا يَمُرُّ بِهِ رَجُلٌ عَجُوزٌ، يَرْسمُ شَارَةَ الصَّلِيب،
وَعِنْدَمَا يَمُرُّ بِه شَاب، يَفْرِدُ كَتِفَيْه،
وَعِنْدَمَا تَمُرُّ بِه فَتَاةٌ، تَزْفرُ مُتَنَهِّدَة،

وَعِنْدَمَا يَمُرُّ بِه أَحَدُ المُنْشِدِين، فَإِنَّه يَتَرَنَّم بِأُغْنِيَة

* * *

هاي، أَيُّهَا الفِتْيَان البَوَاسِل المُخْلِصُون،
يَا صُنَّاعَ الأَغَانِي،
يَا مَنْ تَرِنُّ أَصْوَاتُهُم مَرِحَةً وعَالِيَةً وقَوِيَّة!
لَقَدْ بَدَأْتُم عَلَى خَيْر، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَنْتَهُوا،
فَغَنُّوا فِي مَدِيحِ الشَّرِيفِ، وَالأَمِينِ، وَالْعَادِل!
فَلِلنَّبِيلِ الْكَرِيمِ، الْمَجْدُ وَالشُّهْرَة!
وَلِزَوْجَتِه الْجَمِيلَةِ، الْمَجْدُ وَالشُّهْرَة!
وَلِلشَّعْبِ الْمَسِيحِيِّ جَمِيعاً، الشُّهْرَةُ وَالْمَجْد!

— 1837 —

الشيطان

(1)

فَوْقَ الأَرضِ الآثِمَة
حَلّقَ الشَّيْطَانُ الْحَزِين
وَذِكْرَيَاتُ الأيَّامِ السَّعِيدَة
تتزَاحَمُ حَوْلَ رُوحِه الطَّرِيدَة،
ذِكْرِيَاتُ أَيَّامٍ كَانَ يَتَأَلَّقُ فِيهَا بِالْمَرَح
وَسْطَ الْمَلائِكَةِ فِي أَبْهَاءِ الضِّيَاء،
حِينَمَا كَانَت المُذَنَّبَاتُ فِي طَيرَانِهَا الْجَرِيء
تُقَدِّمُ لَه ـ سَعِيدَةً ـ فُروضَ الاحْتِرَام
إذ انَّه، طَاهِراً وَسْطَ المَلائِكَة،
سَوْفَ يُحَدِّدُ مَنَازِلَها
وَسْطَ السُّدُمِ الأَبدِيَّة
بِذِهْنٍ حَادٍّ وَحَدْسٍ خَاطِف
عَبْرَ المَسَافَاتِ النَّائِيَةِ لِلسَّمَاوَات،

أَيَّامَ كَانَ يَعْرِفُ الوَفَاءَ وَالْحُب،
البِدَايَة السَّعِيدَةَ لِلْخَلْق!
ايَّامَ لَم يَكُن الشَّكُّ وَاللَّعْنَةُ السَّودَاء
قَد غَمرَاهُ ـ بَعد ـ بِمَرَارَةِ النَّفْي العَقِيمِ عَاماً وَرَاءَ عَام،
وَحِينَمَا كَانَ الكَثِيرُ، الكَثِير..
لكنَّ ذَلِك
كَانَ أكثر مِمَّا يُمكِنُ أَن تَحْتَمِلَ الذَّاكِرَة.

(2)

طَرِيداً مُنْذُ زَمَانٍ بَعِيد، يَهِيمُ وَحِيدا،
لاَ مكَانَ يَشْعُرُ بِانْتِمَائِه إِلَيْه،
عَبْرَ صَحْرَاءِ العَالَمِ البَاهِتَة
فِيمَا يُدَوِّمُ حَوَالَيْه عُمْرٌ وَرَاء عُمر،
دَقِيقَةً وَرَاءَ دَقِيقَةٍ ـ نَفْسَ الشَّيء.
وَكَأَمِيرٍ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ ـ الَّذِي امْتَلَكَه بَخْسا ـ
نَثَر الزُّوَّانَ وَسْطَ القَمْح..
يَا لَهَا مِنْ مُهِمَّةٍ كَئِيبَةٍ دُونَ غُفْرَان،
خَالِيَّةٍ مِنَ الإِثَارَةِ وَالمُوَاجَهَة ـ
فَالشَّرُّ نَفْسُه ـ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْه ـ يَبْدُو وَدِيعا.

(3)

هَكَذَا، طَرِيداً مِنَ الفِرْدَوْس،
حَوَّمَ فَوْقَ قِمَمِ الْجَلِيد

وَرَأى الثُّلوجَ الأَبدِيَّة
لِـ «الكازبيك» و «القُوقاز»،
رَأى الأَعْمَاقَ المُلْتَوِيَة، الأُفْعُوانِيَّة،
لِمَمرِّ «الداريال»
ذلك الشِّعْبِ التِّنِّينِيِّ الأَسْوَد،
وَالقَفزَاتِ الوَحْشِيَّةَ لـ «التيريك»
كَأَسَدٍ مُقَيدٍ بِعُرفِ زُهُورٍ مُتَشَابِكَةٍ تَهُبُّ وَرَاءه،
وَزَئيرٌ هَائِلٌ يَتَردَّدُ عَبْرَ التِّلال،
حَيْثُ سَمِعَت الحَيَوَانَاتُ وَالطُّيُور
عَلَى المُنْحَدَرَاتِ اللَّازورديَّةِ وَصُخُورِ الْجِبال
الصَّوتَ الجَبَّارَ لِلنَّهر،
وَعِنْدَمَا انْطَلَقَ، اندفَعَت السُّحُبُ الذَّهَبِيْة
مِنَ الْجَنُوبِ فِي أَكْفَانٍ بَالِيَة،
رِفَاقَ رِحْلَتِه إِلَى الشَّمَال،
وَأَتَت المُنْحَدَرَاتُ البَحْرِيَّةُ الهَائِلَةُ مُتَدَافِعَة
وَمَالَت عَلَيْهِ فِي غُمُوض
نَاشِرَةً قُوةَ النُّعَاسِ القَاهِرَةَ عَلَى التَّيَّار..
وَفَوقَ قِمَمِ المُنْحَدَرَاتِ الْبَحْرِيَّة
رَفَعَت القِلاعُ رُؤُوسَهَا الشَّاهِقَة
وَحَدَّقَت، فِي وَعيدٍ، خِلالَ الضَّبَاب،
إِنَّهَا الحُكَّامُ الجَبَابِرَة
القَائِمُونَ عَلَى بَوَّابَةِ القُوقَازِ الهَائِلَة ـــ

وَكُلٌّ شَيءٍ فِي عَالَمِ الله
يَسْتَلْقِي رَائِعاً وَجَامِحا.
لَكِنَّ «الرُّوحَ» المُتكَبِّرَة
نَظَرَت بِتَشَكُّكٍ وَازْدِرَاءٍ إِلَى خَلْقِ الله،
إِلَى طَلْعَتِه الْهَادِئَةِ الصَّافِيَة
الَّتِي لا تَقْبَلُ المُشَارَكَة.

(4)

يَتَفَتَّحُ أَمَامَه الآنَ مَشْهَدٌ آخَر
فِي جَمَالٍ رَائِع.
فَالوِدْيَانُ الخَصِيبَةُ المُلَوَنَةُ تَمتَدٌّ خَضْرَاء
مِثْلَ بِسَاطٍ عَلَى أَنْوَالِ «جورجيا»،
يَا لَهَا مِنْ أَرضٍ خَصِيبَةٍ مُبَارَكَة!
أَشْجَارُ الْحُورِ تَعْلُو كَأَعْمِدَةٍ شَاهِقَة،
وَتَتَرَاقَصُ الْجَداوِلُ الطَّنَّانَةُ فِي مَجَارِيها
فَوْقَ حَصىً مُخْتَلِطِ الأَلْوَان،
وَكَجَمْرَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ، تُزهِرُ أَشْجَارُ الْوَرْد
حَيْثُ يُغَنِّي الْعَنْدَلِيبُ أَبَدا
رَسَائِلَ عِشْقٍ إِلَى الْحَسْنَاوَاتِ الرُّخَامِيَّة
الصَّمَّاء أَبَداً عَن غِنَائِهِ الْعَذْب.
وَيَبْحَثُ الأَيلُ الرِّعْدِيدُ، فِي أَيَّامِ الْقَيْظِ،
عَنْ كَهْفٍ يُغَطِّيه اللّبْلاب

لِيَحْمِيَه مِنْ حَرَارَةِ النَّهَار،
كَمْ هِيَ مُتَأَلِّقَةٌ، وَكَمْ هِيَ بِكْر أَوْرَاقُ النَّبَاتَاتِ هُنَا!
مَائَةُ صَوْتٍ هَامِسٍ فِي اجْتِمَاعٍ سِرِّي
أَلِفُ قَلْبِ زَهْرَةٍ.. هَذَا الْخَفَقَان!
إِنَّه الدِّفْءُ الحِسِّيُّ لِلأَصِيل،
النَّدَى العَطِرُ الَّذِي يَتَسَاقَط
لِيُغَطِّي الأَوْرَاقَ المُمتَنَّةَ تَحْتَ القَمَر،
والنُّجُومُ الَّتِي تَلْمَعُ وَضَّاءَةً مُكتَمِلَة
كعيونِ الحسناواتِ الجورجياتِ في الليل!...
أما الصَّدرُ القاحلُ للطريدِ
فلمْ توقظ فيهِ الطبيعةُ الوافرة
مداً جديداً للقوى التي همدت طويلاً،
لم تُثر لديه أية عاطفة
سوى الحسدِ، والكراهيةِ، والازدراءِ البارد.

(5)

أقام «جودال» ذو الشَّعْرِ الرمادي
المنزلَ شاهقاً، والساحةَ رحيبة،
شيّده عبيده الخاضعون
بثمنٍ غالٍ من العَناء والدّموع.
على المنحدرات الصخرية المحيطة
تمدد ظله، منذ الشروق، معتماً وبارداً

أقيم درج شديد الانحدار في واجهة المنحدر
يؤدي من برج الحافة نزولاً إلى «أراجفا».
أسفل هذا الدرج
تذهب الأميرة «تمارا» ـ الشابة الجميلة ـ متألقة،
وحواليها يرفرف خمارها الأبيض الثلجي،
لتأتي بجرار الماء من النهر.

(6)

أطل المنزل على الوديان
ـ حتى هذه اللحظة ـ في صمت صارم،
لكنه ينتصب الآن مفتوح الباب على المصراعين
و «جودال» يقيم احتفالاً يعلن به زواج «تمارا»ه:
يتدفق الخمر بحرية ويصدح مزمار القربة،
والشبان يتحلقون للعشاء
وأعلى السطح، المفروش بأبسطة شرقية أنيقة
تجلس العروس الموعودة
وسط أترابها الضاحكات،
بعد أن قضى الجميع وقتهم في اللعب والغناء والمرح.

وراء التلال
انحدر نصف قرص الشمس.
يهدر اللهو سرعة وصخباً حيناً،
وحيناً يدور التصفيق الإيقاعي المنتظم والغناء

فتشده العروس إلى أقدامها
الرشيقة المتوازنة،
ودفها الصغير فوق رأسها يدور،
لتطير في خفة الطائر فوق البساط،
ثم تتوقف لتنظر حواليها،
وتترك أهدابها لترتخي
فتخفي عن الحسود لمحتها المتألقة،
ترفع حاجبين سوداوين،
وبخفة، تميل فجأة إلى الأمام
فيصر قدمها النحيل،
وبرشاقة تنسل وتنزلق إلى الرقص،
انظروا إلى بسمتها —
ومضة بهجة متوهجة بمرح طفولي.
والآن.. استطاع الشعاع اللعوب للقمر الأبيض
المتمايل في الماء الرقراق الصافي،
أن يقرن هذه الابتسامة الرائعة
بما هو أكثر حياة من الحياة،
بما هو أكثر جمالاً من الشباب.

(7)

لذا، أقسم بنجم منتصف الليل
بالشرق المتوهج والغرب المضيء

أن لا شاه فارسي قد عرف نظيرتها
ولا ملك على وجه الأرض قد نعم أبداً
بتقبيل عين على هذا الاكتمال والروعة.
أبداً ما بللت نافورة جناح الحريم المتلألئة
مثل هذا القوام بالبللورات الندية!
لا وما لاطفت أصابع فانية أبداً
جبهة في هذه الروعة
لتحل مثل هذه الضفائر الفاتنة،
حقاً، فمنذ لعنة حواء الأولى
وارتحال الإنسان عن الفردوس إلى الأبد
أقسم، لا جمال شبيه بهذا
تفتح تحت الشمس الشمالية.

(8)

هكذا رقصت للمرة الأخيرة، واأسفاه!
فغداً سيكون عليها،
هي وريثة «جودال» العجوز
الإبنة الرائعة للحرية،
أن تحني رأسها، كإنسان مسلوب اللب،
لمصير ذليل،
أن تتخذ وطناً ليس لها،
وأسرة لم تعرفها أبداً ــ

وكثيراً ما سوف يلقي الشك الغامض
ظلالاً على وجهها المضيء،
كانت كل حركاتها، حتى هذه اللحظة، عفوية تماماً،
فاتنة، عابقة بالجمال،
تمتلئ بالبساطة العذبة،
حتى ان الشيطان، وهو يحلق عالياً،
حين تطلع لأسفل وتصادف أن يرى...
تحول عنها، متذكراً جنسه السابق،
متنهداً.

(9)

الشيطان رأى...
وللحظة، بدا له أن السماء تدعوه
لتجعل روحه المجدبة
تضج بالصوت المتألق، العذب ــ
ومن جديد عانق تفكيره
المعنى المقدس للخير والجمال والحب!
وراحت ذاكرته تستعيد ــ بصورة غريبة ــ
المباهج التي عرفها في الأعالي
ناشرة أمامه قيداً من المهابة القديمة
حلقة إثر حلقة
كما لو كان يرى الطيران الجريء

لنجم ينطلق إثر نجم خلال الليل...
تطلع إلى المشهد المؤثر طويلاً،
فتسمر بقوة ما خفية،
واستيقظ في قلبه حزن جديد.
وفجأة، نطق الإحساس
بلهجات كانت مألوفة في الماضي،
أيمكن أن يكون ذلك بعثاً؟
لقد ذهبت دوافع الإغواء الماكرة
كما لو انها لم تكن...
النسيان؟ ــ
لم يمنح الزب ذلك بعد:
بل ولن ينسى، إذا ما استطاع!...

(10)

في نفس الوقت، كان العريس يتخذ طريقه العاجل
وهو يلهب جواده النبيل
مسرعاً لينضم إلى عشيرته المجتمعة
للاحتفال بيوم زواجه..
وقد لازمه ــ حتى الآن ــ الحظ الطيب
فتألقت أمامه شواطئ «أراجفا» الخضراء.
وخلفه، قافلة من الجمال
المثقلة بالهدايا الغالية

وهي ـ بالكاد ـ تستطيع تبديل خف بخف، متمهلة،
أسفل الطريق، جماعة إثر جماعة،
تتضح للرؤية حيناً، وحيناً تغيب عن النظر،
والأجراس ترن متهادية برفق إيقاعي.
ركب صاحبها في المقدمة
ليقود قافلته المحمَّلة
التي تتابع رتلها حيث سار جواده...
منتصباً، أحكمت الصحراء الممتدة الحلقة حواليه،
وسيف المبارزة ومقبض الخنجر يلمعان متألقين
تحت الشمس،
وعلى ظهره تومض بندقية،
منقوشة باللون الأسود.
الريحْ تطاير أردان ردائه،
وقماش سرجه ذو النسيج الفخيم
مزركش في روعة
مطرز بالحرائر الذهبية
ومزين برموز عهود الحكم المختلفة ـ
وجواده من سلالة ذهبية لا تقدر بثمن.
اتسع المنخران، والأذنان ارتعشتا
ألقى نظرة سريعة لأسفل، وصهل مخاوفه
من مسافة السقوط العميقة،
حيث الزبد المتطاير يتوج الأمواج المتقافزة على المنحدر.

كم هي محفوفة بالمخاطر تلك الطريق التي يسلكونها،
فالمنحدر الصخري يخنق الطريق الضيق
والوهد العميق يمهد السبيل.
الوقت متأخر –
وهج الغروب يخبو على قمم الثلوج.
والقافلة تسرع نحو الوطن.

(11)

لكن انظروا – ثمة كنيسة صغيرة على الطريق...
هنا أقام بعض الأمراء عدة أيام،
لكن قتلتهم أيد منتقمة قبل الأوان –
لقد أصبحوا الآن قديسين.
هنا، يجب أن ينزل المسافر
سواء أمسرع هو للقتال،
أم مهرول ليلحق باحتفال،
هنا، يجب دائماً أن يكبح المسافر جماح فرسه
ويصلي بضراعة للقديس الصالح
ليحمي حياته من سكين المسلم* المترصد.
لكن العريس الجسور

---

* المقصود بـ « المسلم » هنا، هو « التركي ». وقد كان الاستناد على الدين، كأداة ومرتكز إضافي، في الحروب الروسية التركية الطويلة، أمراً مألوفاً، في ذلك الحين، حيث كان كل طرف يعتبر نفسه في « حرب مقدسة ضد الكافرين » الآخرين.

نسي الآن أسلافه القدماء
وتلهى بأحلام ضالة:
عن كيف سيقبل عروسه تحت معطف الليل،
استسلم لإغواء الشيطان
وأضلته الأفكار المضطربة،
بدلاً من أن يتشبث بمذهب أسلافه الأتقياء ـ
إلى أن بدت هيئة شخصين ـ ثم طلقة ـ إلى الأمام
ماذا كان ذلك؟
اندفع العاشق النبيل، في العدو، كما صقر إلى عدوِّه،
واثباً في ركابه، وهو يحشر قبعته المرتفعة في جبينه،
لا كلمة نطق،
فوقع سوطه مرة،
ومرة انطلقت بندقيته التركية...
طلقة أخرى.
صرخات وحشية.
وواصل الأمير مرعداً.
وفي الوراء،
ترددت في الوادي الأصداء الممدودة للأنين..
معركة ليست طويلة.
وعن طبع جبان،
استدار الجورجيون وجروا!

(12)

صامت كل شيء،
والجِمال تتجمع في أسى
تحدق، مرتبكة، في سيدها السابق
المستلقي قتيلاً وسط الجبال الساكنة.
لا صوت سوى ما تصدره سروجها،
وحمائلها مخربة ومنهوبة،
وفي بطء، تحلق بومة
حول الأجساد المسيحية المتمددة على الأرض!
لا مقبرة آمنة
تحت أحجار إحدى الكنائس القديمة
تنتشل هذه العظام
مثل تلك التي يرقد فيها الآباء،
ولا الأمهات والأخوات سيأتين
أو أوشحتهن الطويلة المتطايرة
ليبكين فوق هذه المقابر النائية!

بدلاً من ذلك، اندفعت أيد متحمسة،
لتقيم صليباً يشير إلى مصرعهم في الإغارة،
حيث يلتصق الطريق
بجدار المنحدر العمودي الشاهق...
ويترامى عليه اللبلاب، النامي بوفرة في الربيع،

كما شبكة زمردية...
وإلى الآن، لا يزال المسافر ينزل حمولته هنا،
منهكاً من الطريق الشاق،
ليستريح في ظلال الله الخصيبة...

(13)

رشيقاً كما مُهر بري، لا زال الحصان يجري صاهلاً
كما لو كان يواصل تقدمه
في إحدى الهجمات الضارية،
يندفع بسرعة عنيفة حيناً،
وحيناً يتوقف كأنه يسترق السمع
ويتسع منخراه ليستنشق الريح،
ثم يقفز وينزل مدوياً على حوافره الأربعة،
مرسلاً الشرر من الصخور
في سرعته المجنونة،
وعرفه المتشابك يتماوج في الوراء.
يحمل راكباً صامتاً
يتمايل إلى الأمام بين الحين والحين
ليريح رأسه على هذا العرف الوحشي.
ينام العنان مرخياً في أيد عقيمة،
فيما الأقدام مغروزة حتى عمق الركاب،
وعلى قماش السرج

تتسع دوائر الدم كلما أسرعوا
آه، أيها الجواد النبيل
سيدك الجريح من حملت من المعركة
رشيقاً كما الضوء
لكن الرصاصة سيئة الطالع انطلقت بسرعة أكبر
وفاجأته في الظلام!

(14)

بيت «جودال» ـ الآن ـ هو بيت للنواح،
والناس يتدافعون إلى الساحة:
فرسُ مَنْ، ذلك الآتي عدوا في رعب
ليسقط أمام البوابة الحجرية؟
والراكب القتيل، مَنْ؟
لقد تركت ضراوة المعركة على وجهه
أثراً محفوراً عميقاً
وعلى المعطف والأسلحة استطاعوا أن يروا
بقعاً من الدم الطريّ،
وخصلة شَعْر من العرف
وقد الْتَوَتْ في يده،
لم تنتظري طويلاً، أيتها العروس الشابة،
ولم تتطلعي طويلاً لتري عريسك قادماً:
واأسفاه، فبرغم أنه وصل إلى جانبك

لينضم إلى الاحتفال
إلا أنه يكتم كلمته السامية سدى...
وأبداً لن يمتطي فرسه من جديد.

(15)

كما الرعد، انفجر قرار الله
في هذا البيت الآمن!
و «تمارا» ــ منتحبة في سريرها ــ
تطلق العنان للدموع الغزيرة
حتى يصبح عليها، إذ تترنح،
أن تتساند عليهم...
وفجأة، يتراءى لها أنها تسمع
كلاماً عجيباً يأتيها من أعلى:
«لا تبكي يا طفلتي! لا تبكي سدى!
فهذه الدموع ليست الأمطار واهبة الحياة
لتعيد جثة
لا تستجيب إلى عالم من جديد.
فهي لا تفعل غير أن تجعل منبعها معتماً
في هذه العيون الصافية،
وأن تحرق هذه الخدود...
إنه ناءٍ
ولن يعلم كل أحزانك المريرة،

فنسيم الفردوس يداعب الآن
جبهته الملائكية الشامخة،
ما هي الأحلام والسجن الأسود،
الآمال الصغيرة والتنهدات المختنقة
للعذراوات الدنيوية

على مرأى من إنسان يسكن الفردوس؟
آه لا، إن مصير الإنسان الفاني،
صدقيني، يا ملاكي العزيز،
لا يستحق لحظة واحدة
من حزنك الغالي.

«في صحارى المحيط الفضائي
العارية من الأشرعة، بلا دليل،
وخلال الغيوم، لم تنقطع النجوم أبداً
عن الدوران في حركة دائبة،
وعبر الحقول اللانهائية للسماء
يمر الحمل الوليد بلا أثر ـ
والسحب تذوب في اللسان المنبسط الهادئ
للسهل اللازوردي.
فساعة الفراق وساعة اللقاء
لا تمنح الفرح ولا الأسى،
ولا الأسف على الماضي الذي يتلاشى سريعاً،

ولا الرغبة في أي غد.
فليكن يوم الذكرى
يوماً واحداً طويلاً يفيض أسى،
أما بقية الأيام، فلتكوني قوية
ومتحررة ـ منفردة ـ من الهموم الدنيوية مثلهم!

«وحالما ينشر الليل ستاره
ليغطي المرتفعات القوقازية،
وحالما تتهاوى الطبيعة تحت رقية الكلمات السحرية
ساكنة وساجية،
وحالما تجري الرياح على المنحدرات
وهي تصدر الحفيف خلال العشب الذاوي،

ويحلق الطائر الصغير
ـ المختبئ خلف الأوراق الهشة ـ عالياً،
وتتفتح أزهار الليل المتوردة
إذ ترتوي من ندى المساء
تحت أوراق الكروم في الظلام،
وحالما يبزغ القمر الذهبي العظيم
بهدوء فوق الجبل
ليسرق نظرة مختلسة منك،
سوف آتي محلقاً لأرعى نومك
وأغفو على أهدابك الحريرية

أحلم سعيداً بالنهار الذهبي...»

(16)

في نعومة، كما وهم غريب
تساقط الصوت هامداً، كلمة إثر كلمة.
وثبت الفتاة وحدقت فيما حولها،
وفوضى بلا وصف تعتمل في صدرها –
لا الحزن ولا الخوف ولا النشوة
يمكن مقارنتها بهذا الفوران العاطفي المفاجئ.
انفجرت الروح من أغلالها المشدودة
وسرت النار المحتدمة في أوردتها
وبدا كما لو أن الصوت المجهول العجيب ما زال يتكلم –
ثم حط النوم الذي هفت إليه
هابطاً ثقيلاً ليبارك عينيها المكدودتين،
لكنه أزعج فكرها
بأحلام نبوئية غير منشودة:
وقف أحد الغرباء، ملتفاً بالضباب، بجانب سريرها،
ما نطق كلمة واحدة
لكنه، وهو يشف عن جمال غير دنيوي،
تطلع إليها بورع شديد، في أسى،
كما لو في شفقة.
لكنه لم يكن ملاكها الحارس،

ولا زائراً من ممالك السماء،
فلا هالة مضيئة حول رأسه
أشرقت على الخصلات الظليلة،
ولا كان أحد الأشباح المعذَّبة
أحد أرواح الجحيم الشريرة ــ آه لا!
لا كان من الظلام، ولا من الضياء!...
لكنه يشبه الشفق الهادئ
إذ يوغل المساء في الليل!...

الجزء الثاني

(1)

«آه، أبي، كفاك تهديداً، يا أبي
لا توبخ ابنتك مرة أخرى.
انظر إلى هذه الدموع! فأنا ما زلت أبكي
كما تعلم جيداً
منذ أتى الخطباء ليطلبوا يدي
من كل أرجاء الأرض...
كما لو أن في جورجيا كلها فتاة وحيدة
يريدونها كلهم عروساً...
لكنني، لا أستطيع أن أكون زوجة أحد!...

آه، أبي، لا تحتد عليَّ، يا أبي،
فها أنت ترى بنفسك
السم البطيء يسمم كل أفكاري
ولن تتركني المصيبة أمضي

مذهولة بالأحلام الساحقة
لأذوي وأموت!
فكن رحيماً، ولتدع ابنتك الحمقاء
تبحث في دير عن مأوى
هناك، سيرعاني المخلّص
لو لم يكن معي سوى خماري
وسأفضي له بكل كروبي.
فالعالم، كما أعرفه كله تماماً،
لا يحمل شيئاً لي:
فلتدع صومعة في ظلال الشفق تؤويني..
كما في قبر ـ قبل الأوان...»

(2)

هكذا ذهبت عائلة «تمارا»
بابنتهم إلى دير بعيد،
وهناك، بكل تواضع،
كست العذراء الرقيقة صدرها الفتي
بقميص خشن من الوبر.
ولكن، حتى في هذا الزي الرهباني الخشن،
لم يجد قلبها راحة
من الأحلام الحرام
أكثر من راحة من يرتدين المخملي أو المقصب.

وأمام المذبح
في موعد إشعال الشموع، والصلاة المقدسة،
وخلال الترنيم العذب للكورس
كان يصل إلى سمعها صوت مألوف
وهناك، تحت القبة،
كان يظهر شبح معروف
لينسل إذا ما تصاعد البخور...
دونما صوت، دونما أثر،
لكنه يومض أمامها
كنجم ينادي ويشير من بعيد
لكن إلى أين؟
ذلك ما لا يعرفه أحد.

(3)

كان الدير المقدس معزولاً
في واد هادئ صغير بين تلين
محاطاً بأشجار السنط والحور...
وإذ ينحدر الغروب مرهق الجناح
لينام في الوهد،
تومض أدوات الشواء بزخارفها النباتية
في صومعة الراهبات الصغيرات.
وفي الخلف، تحت شجرة اللوز

حيث تقبع في ظلها النحيل، في سكينة،
صلبان كئيبة كشواهد صامتة على القبور،
أقامت الطيور المرحة تكوينات عذبة من الألحان.
وتقافزت جداول الربيع الباردة من صخرة إلى صخرة،
غنت، ثم ذابت تحت الجانب الناتئ
لتزيد في اندفاعات سريعة بعيداً
تحت الأدغال المزهرة التي يكسوها الصقيع...

(4)

كان هناك مشهد في اتجاه الشمال،
ملمح من الجبال.
وعند بزوغ اليوم،
عندما ارتفع الضباب الأزرق الدخاني المنعقد
من تجاويف التلال،
نادى القسيس من برجه،
ووجهه في اتجاه الشرق الساطع،
كل قومه لصلاة الصباح،
ثم انطلق رنين أجراس الكنيسة المرتعش
ليوقظ الدير،
ذلك الوقت القدسي
لم يفعل سوى أن زاد من سكينة المكان، من الهدوء..
أتت «تمارا» في تلك الساعة

معلقة إبريقاً في ذراعها
وهي تمضي إلى حيث يصبح الضباب أكثر شفافية
مسرعة إلى أسفل المنحدر من أجل الماء.

بدت القمم الثلجية
بنفسجية في مواجهة الشمال
وانطرحت عباءة من اللون الوردي
على أكتافها في المساء،
وهناك بينها قيصرها
قيصرها، «كازبيك»،
يتمايل في أثواب فضية،
رافعاً رأسه بين السحب،
وقد حلّق عالياً في اتجاه النجم القطبي.

(5)

أُوصد عقلها ـ حتى الآن ـ دون المباهج البريئة،
مفعماً بالأفكار السامة،
وامتلأ قلبها بالظلام
حيث العالم كله مكدر وفظ.
وأشعة الصباح وظلام الليل
لا يؤديان سوى إلى اشتعال
شرارة العذاب في روحها.

وإذ تجيء البرودة الليلية العذبة
متسربة فوق الأرض العطشى،
تتهاوى ــ وقد قاربت الجنون ــ منتحبة
أمام الأيقونة المقدسة،
وفي صمت الليل
يخيف نشيجها الكئيب
المسافر على الطريق،
فـي يظنها «روح أحد الجبال
مقيدة في أحد الكهوف مستلقية وهي تئن!»
فيهرول على فرسه المكدود...

(6)

هكذا، مترعة بالشوق والألم
تجلس «تمارا» وتحدق طويلاً
مستغرقة في تأمل متوحد طوال اليوم،
تتنهد بجانب نافذتها مترقبة، محدقة في الخارج...
لا شك لديها في أنه سيأتي،
وإلا فلماذا كانت أحلامها بهذا الوضوح؟
لماذا اعتاد الظهور
بعينين حزينتين بشكل لانهائي
وحديثْ حنون بشكل رائع؟
وبعد مرور أيام عدة

كانت قد اندفعت بصورة غريبة ـ
لا تعرف لماذا....
دعت القديسين الصالحين ليحموها
لكنها ـ من القلب ـ كانت تناديه هو،
ودائماً، عندما يعتم اليوم
كانت تستلقي مرهقة بالتحديق
على سريرها وتحاول أن تنام:
فتحرق الوسادة خدها الملتهب
ويخنقها الرعب وتلهث أنفاسها
ثم تقفز من فراشها القش
بأكتاف مرفوعة، محمومة الصدر، مرتعدة،
وغشاوة أمام بصرها،
ذراعاها مفرودتان لتعانقا الليل،
وتذوب على شفتيها القبلات...
. . . .
. . . .

(7)

كانت التلال الجورجية محتجبة
في الغسق الشفاف للمساء
قبل أن يستدير الشيطان نازلاً
متلوياً طويلاً طويلا

خلال الشفق الرمادي،
وبرغم أن الدير كان يغريه بصورة أخاذة،
فلم يستطع أن يفكر في كسر هذا السلام المقدس...
دقيقة واحدة أخرى
وكان مستعداً لأن يتخلى عن نيته الوحشية.
تقدم أسفل الحائط الدائري، خلف الباب
غريقاً في التفكير.
تساقطت الأوراق الظليلة على خطواته دون همسة
رفع عينيه:
خفق ضوء مرتعش من نافذتها خلال الليل.
وهكذا، كانت تنتظر ـ مستيقظة!
عزف القيثارُ متناغماً
خلال السكون الناعم المحيط
وفوقهما تعالت أغنية
أغنية تدفقت منسابة في رقة
كما دموع تتساقط ببطء،
أغنية من الرقة حتى أنها
بدت كأنها تأتي من الأعالي السامقة
من أجل الأرض في الأسفل.
ربما، هبط بعض الملائكة
ليبحثوا عن كائن كان ذات يوم صديقاً
ليمنحوه عزاء خفياً،

ليخففوا آلامه، ويعيدوا له النعيم الغابر.
ولكنه اشتعال الحب وعذابه
ما أوثق الشيطان بإحكام إلى العبودية للمرة الأولى،
كان عليه أن يطير
لكن أجنحته العملاقة تحولت إلى حجر!
أي معجزة! عيونه معتمة
وتتحدر على خده دمعة...
سوف تظل الأحجار، منذ هذا اليوم،
تحمل آثار سقوطها النارية...
دمعة من لهيب، أثر مروع،
لكنها ليست دمعة إنسانية!

(8)

وهكذا أتى،
مستعداً أن يمنح قلبه للحب، وروحه للضياء.
رأى أن الوقت حان ليحيا حاية جديدة
ابتداء من هذه الليلة التي اشتاق إليها.
وكما في موعد اللقاء الأول
أحست الروح المتكبرة برعشة خجولة غريبة،
بترقب مرتجف خائف:
كان ذلك علامة تنذر بالشر!
دخل، نظر حواليه،

أمامه انتصب «حارس» الآثمات الفاتنات،
رسول السماء، وملائكة مشرقون،
بشفاه مبتسمة وجباه من لهب.
وهكذا، ضمتها روح الخير المشرقة تحت جناحها،
محبطة العدو الوحشي.
كان العدو يتطلع إلى ترحيب ودي –
لكن الضياء المقدس جاء يخفق فوقه
ونزل عليه التقريع الصارم:

(9)

«روح فساد وخطيئة:
من دعاك في هذه الساعة المظلمة؟ أجب!
فلا خدم لك هنا
داخل هذه الجدران المقدسة،
بل وما زارت نسمة شر حتى اليوم
وديعتي هذه، المحرمة عليك...

فمن دعاك؟
في رقة ابتسم الشيطان جواباً عليه،
لكن بداخله استيقظت الكراهية القديمة للجحيم.
ومضت عينه بحقد ناري
إذ خاطب الرسول المقدس:
«دعها! فهي ملكي!

لقد أتيتَ متأخراً تماماً، أيها الحارس الطيب –
انظر
لستَ حكماً فيما نحن عليه
فقلبها المفعم بالحيوية يخصني أنا.
ليست وديعة آلهة هي
فهنا أنا السيد، وهنا من أحب!»
حزين العينين، أحنى الملاك نظرته
على فريسة روح الشر
وببطء خفق بجناحيه الهائلين مرة واحدة
وحلق خلال السماء مبتعداً.
. . . .

(10)

تماراً:
من أنت، يا نذير الشر؟
أجب ــ هل أتيت من الفردوس أم من الجحيم؟
وماذا تريد؟

الشيطان:
أي فتنة!

تمارا:
قل ــ فقط ــ من أنت؟ يجب أن تقول.

الشيطان:
أنا مَنْ أصغيتِ إليه في سكون الليل،
مَنْ أعمى فكره عقلك،
مَنْ أحسستِ بتعاسته،
وصورته تلازم عينيك الساهرتين،
مَنْ إسمُه يعني ضياع الأمل
لكل من أتعامل معه.
أنا مَنْ لا يمكن أن يحبه إنسان،
بلاء على كل عبيدي الفانين،
الشر في الطبيعة.
عدو الله وكل الآلهة.
سيد المعرفة، والحرية.
وكما ترين، فأنا عند قدميك.
إنني، وقد مضيتُ إلى أبعد من كل ما عرفت،
سأتلو بنعومة على مسمعك
صلوات حب هامسة.
تحكي عن ألمي، أول آلامي على الأرض،
وعن دموعي الأولى.
فلتصغي إليَّ، شفقة بي!
فكلمة واحدة منك سوف تستعيدني.
ربما أستعيد مكاني في الصفوف الملائكية،
متشحاً بحب قلبك النقي،

وأتخذ سيماء جديدة ومجداً جديداً.
أصغي إليّ،
أتوسل إليك أن تصغي إليّ،
إنني عبدك وأنا أحبك!
فما كدت أراك
حتى أحسستُ بتحول خفي مفاجئ
إلى القوة والخلود،
وجرتني قوة جبرية غريبة
إلى حسد مباهج الإنسان الضئيلة،
الحياة بدونك أصبحت عذاباً
وأن أفترق عنك ـ هو الرعب.
شعاع حي من الدفء،

معجزةُ تجددٍ رائعٍ مسّت قلبي
وأطلقت الدم الفاتر راكضاً.
ثار الأسى تحت الجرح القديم
كما ثعبان، ليوقظ الألم القديم.
لأنه بدونك،
أي كسب هناك في لانهائيتي؟
سيادة مطلقة، عظمة؟
كلمات رنانة جوفاء ـ
كنيسة مترفة خالية من كل دين!

تمارا:
دعني، يا روح الخداع الزائفة
كفى، فأنا لن أثق بالعدو.
آه يا رب...
سم قوي عذب يستنزف الإرادة
فلا أستطيع النطق بالصلاة الواجبة ـ
كلماتك نار
أتبدد وأذوب فيها.
لا أستطيع أن أرى...
لكن قل لي: كيف حدث أن أحببتني؟

الشيطان:
كيف، أيتها الفاتنة؟ لا أدري،
إن حياتي عجيبة تماماً وغريبة،
وإكليل الشوك ها أنا ذا أطرحه بإباء
بيدي أطرحه عن جبهتي.
فكل ما قد كنته يرتمي حطاماً:
وفردوسي وجحيمي في عينيك.
أحبك بهوى عميق.
وأنت لا تستطيعين أن تحبيني مثلما أحبك،
بكل قوة ونشوة الفكر الخالد والأحلام السامية.
فمنذ بداية الزمن

وصورتك تبدو أمامي
في الأثير الخالد ـ وحتى هذه الساعة.
اضطربت روحي طويلاً
بأصداء اسمك العذبة،
وفي أيام سعادتي
كنت حاجتي الوحيدة.
آه لو تستطيعين
أن تدركي سأم الحياة المر الموحش
عندما أصبح وحيداً في الألم والفرح،
قرناً وراء قرن،
في لقاء الشر: لا مقاومة،
في استقبال الخير: لا ثواب،
منطوياً على نفسي، برمت بنفسي،
إنها حرب لا تنتهي أبداً
ليدوم الأمل القديم في النصر أو الدمار
الأمل القديم في استعادة السلام من جديد!
في الشفقة حيثما أريد،
في معرفة كل الأشياء من عصر إلى عصر،
في البحث عن نار الكراهية التي تلتهم كل شيء
فلا أجد شيئاً غير ازدراء بارد!
فمنذ حلت عليَّ لعنة الله
أصاب البرود كل الحماسات الفطرية.

لقد رأيت النجوم رفاقي
مصطفّين في ثياب العرس كما في الماضي،
وهم ينسابون أمامي عنبر الفضاء اللازوردي
مروا أمامي في أكاليل من لهب،
ومع ذلك...
فلا يتعرف أحد منهم الآن عليْ،
وقد كانوا أشقائي في أحد الأيام.
وهكذا، في يأس، ناديت الآخرين،
المطرودين مثلي،
لينضموا إلى جماعاتي المتزايدة،
لكن ـ لا أعرف كيف ـ
في كلماتهم ووجوههم الممرورة،
في سحناتهم الكالحة
لم أتعرف فيهم على أحد.
رحت، في فزع، أرفس الأرض بأجنحتي
وأطلقت نفسي إلى السماء،
حلّقت، وحلقت...
إلى أين؟ وَلِمَ؟
لا أعرف...
صرت منبوذاً من الأصدقاء،
كمن طرد من بوابات عدن،
فرأيت العالم كله شاحباً ومعتماً.

استسلمت لنزوتي الحالية،
فقد يطفو قارب محطم بلا دفة،
بلا شراع،
على سطح البحر
لا يدري الوجهة ولا المصير،
هكذا، ربما تهيم سحابة وحيدة سوداء،
في ساعة الصبح الباكرة،
حلال المرتفعات اللازوردية للسماء
مستسلمة للرذاذ العابر من مطر رعدي،
ضائعة بلا مأوى
فلا تترك أثراً على السماء
وحده الله يعلم من أين ـ أو إلى أين!
ولفترة قصيرة
نذرت نفسي لغرس الخطيئة ونشر الشك
في كل الأشياء النبيلة، وكل الأشياء الرائعة.
طوعت البشر بسهولة لإرادتي الشريرة.
وتركني لهب الإيمان، الذي خمد بسهولة، منتصراً،
لكن بلا هدف يستحق مهارتي.
أن أضلل المنافقين والحمقى...
أية فائدة كانت لي في ذلك؟
اختبأتُ بعيداً في الجبال النائية
وهمتُ على وجهي كنجم شريد

في طيران موحش، لا ينتهي أبداً:
وعندما كان يتبعني أحد المسافرين المتأخرين،
وهو يظن أنني ضوءٌ في أحد المساكن القريبة،
كنت أقوده إلى حافة المنحدر...
وأسمع الصوت الكريه يصرخ من الهاوية...
فأتركه ـ وحصانه ـ ينزفان...
سرعان ما تعبتُ من ذلك أيضاً
ومن التسليات الكئيبة الحاقدة الأخرى!
فكثيراً ما كنتُ أنطلق عنيفاً خلال السحاب،
مثيراً عواصف الصخور،
ومتشحاً بالغيوم والوميض،
لأروِّع أرواح الناس
مخيفاً العصاة المُرعبين،
مغرقاً همهماتهم في تأوهاتي،
وأنا أبحث عن مهرب من الأفكار المطاردة،
وأنا أحاول أن أمحو من الذاكرة
الأشياء التي لا تمحى!
ما هي شائعة البؤساء،
معاناة وآلام الإنسان
عبر القرون المتتالية،
حين تقارن بدقيقة واحدة
من ألمي العظيم المبرح والمجهول؟

ماذا عن البشر؟
أعمالهم وآلامهم؟
إنهم اليوم هنا ــ وغداً يذهبون...
ولديهم الأمل في حكم عادل،
فـ «هو» قد يغفر،
برغم أنــ «ــه» لا بد ــ أولاً ــ أن يدينهم.
إنني سوف أذوي غير آثم عبر الأبدية..
وعذابي لانهاية له مثلي،
خالد، ويجب أن يظل يقظاً دائماً،
حيناً يزحف مقترباً، كما ثعبان،
وحيناً ــ كاوياً ــ يحرق العظم،
وحيناً، بطيء وثقيل كحجر ــ
أن أحيا ــ
فالمقبرة الأبدية للأمل والعاطفة هي قدري!...

تمارا:
ما هو ذنبي
في كل هذه الحكاية الأليمة الحزينة؟
لماذا يجب أن أستشعر الشفقة؟
لقد أثمت...

الشيطان:
أكان إثمي ضدك، يا طفلتي؟

تمارا :

هش !

الشيطان :

نحن وحدنا

تمارا :

والرب !

الشيطان :

لن يُعيرنا أي اهتمام
فالسماء، لا الأرض، هي همه الأول.

تمارا :

وعذاب الجحيم، كما تعلمنا؟

الشيطان :

ماذا عنه؟
سوف أكون معك هناك!

تمارا :

أيا من تكون، يا صديق لقاء المصادفة،
أنت، من سرق سلام عقلي، على مضض مني،
وتوغلت عميقاً،
ها أنا أسمع كيف قاسيت، وأحببت ...
فإذا كنت تتكلم من أجل تضليلي

إذا كنت تكذب ــ في جانب أو في الكل ــ
فكن رحيماً بي ــ
لأنه أية حاجة لك من روحي العذراء؟
فهي ليست بأعز عليَّ من الفردوس
من كل هؤلاء اللاتي وقعن في سحرك.
فهن ــ أيضاً ــ جميلات طاهرات...
ما استطاعت يد فانية ــ كما هنا ــ
أن تلوث فراشهن العفيف...
لا! اقسم لي قسماً موثوقاً..
لكن، قل لي ــ فأنت تراهنَّ جميعاً،
لماذا أحلم كما تحلم كل النساء،
وأنا أعاف تطهير قلبي من المخاوف العذبة،
لأصحو، فجأة، في خوف تعرفه جيداً...
لقد رأيت وعرفت كل شيء
ويجب أن تكون رحيماً!
تعال، اقسم لي أن تهجر وراءك
كل الرغبات الشريرة، بدءاً من هذه الساعة
أما هناك قسم بإله،
ولا وعود مقدسة تستطيع الآن
أن تقسم لي بأن تلتزم بها؟

الشيطان:

باليوم الأول للخلق
وبيومه الأخير، أقسم،
بقانون الله وانتهاكه،
بانتصار الحقيقة الخالدة،
بعار الخطيئة المر الذي أحمله،
بالتألق القصير العمر لهذا الحلم أقسم،
وبلقائنا هنا
وبالتهديد بأن نفترق،
أقسم بكل حشد الأرواح
التي وضعها القدر تحت سلطاني،
على السيوف السماوية أقسم،
إذ استخدمها ببراعة أعدائي
عصبة الملائكة الساهرة جامدة الشعور،
أقسم بك، بحياتك، بموتك،
بنظرتك الأخيرة الطويلة،
ودمعتك الأولى،
بالاستنشاق العذب لأنفاسك،
بخصلات شعرك الحريرية،
أقسم بالألم والسعادة،
وبحبنا هذا، أقسم ـ
أنني تخليت عن كل حقد

أنني تخليت عن غرور السنين،
ومن هذا اليوم، فصاعداً
لن يظهر شبح إغراء كاذب ليزعج أي روح،
إنني اتطلع إلى الرضا،
إنني أهفو للحب، للهيام،
أهفو إلى الإيمان بالله.
وبدمعة ندم حقيقي
سأمحو الأثر الناري للسماء الحانقة
عن وجه جدير بك.
فلعل العالم الواسع كله
يتألق في بساطة هادئة،
ويتغافل عني الجميع!
صدقيني،
أنا وحدي من يملك الخيال ليحبك:
لقد أدركت عظمتك كما لم يستطع أحد آخر:
أنت وحيدتي المقدسة.
وأنا أرمي قوتي ـ هذا اليوم ـ عند قدميك.
ومن أجل دقيقة واحدة من حبك
سأعطيك كل الخلود.
ولأنني ثابت وصادق وقوي في الحب
كما في الحقد
فسوف أحملك روحاً أثيرية حرة،

عالياً فوق النجوم
إلى حيث تحكمين في عظمة كمليكتي،
تمارا، الحب الأول لحلمي،
وستأتين لتتطلعي إلى الأرض
بلا ندم، بلا شفقة
كوكب تعيس يفتقد الجمال الأبدي،
في أناقته ذات المشاعر التافهة والعقول الصغيرة،
حيث الجريمة وعواقبها
يشحذون عجلة الرعب الأبدي.
ويخشى الناسُ الحب، ويخشون الكراهية.
أم أنك لا تعلمين حقيقة الحب هنا؟
إنه اهتياج الدماء الفتية إلى فيضانٍ ـ
لكن الأيام تمر، وتفتر الدماء!
فمن يستطيع أن يقاوم الإغراء الطويل
للسأم، والتحول، والتجدد؟
وكيف للحب أن يحيا بعد الافتراق،
أو تغيُّرِ حلمِ الحبيب؟
لا، ليس لحبي أن يهرم
ويذوي في صمت
في المجتمع البدائي للعبيدِ الحاقدين
وسط أصدقاء جاحدين، زائغين، لا مبالين،
وأعداء حقيقيين،

مثقلين بأعمال عقيمة ومحاولات جاهلة،
ومخاوف وآمال فارغة!
ليس قدرك أن تذبلي هنا،
وتصوني روحك، بلا حب، وراء هذه الجدران،
كوردة بلا رائحة
لم تتفتح بنحل العسل
وغائمة تجاه الله.
آه لا!يا وحيدتي الفاتنة،
فلقد ارتبط غدك بمصير آخر،
بمعق آخر للنشوة،
بمقياس آخر للأسى،
فدعي، إذن، أفكارك ورغباتك السابقة،
واتركي العالم البائس لمصيره.
عليكِ أن تتطلعي
إلى عبور ممالك المعرفة الحقيقية،
وهناك، سأقدم لك
حشد الكائنات الخاضع لسلطاني
ليلبي رغباتك،
خدم ساحرون، مرهفو الأيدي،
ومن نجمة الصباح، سوف أنتزع لك،
ذات مساء، تاج الذهب،
وأجمع من الزهور ندى منتصف الليل

وأهز القطرات ففي دفقات بهيجة
ليستعيد التاج ألقه.
سوف أنسج لك شعاع توهج الغروب
ليحيط بك كما الرداء المحبوك
سوف أفعم الأثير حوالينا
بالعذوبة والأريج الشهي،
ودائماً سوف أتودد إلى سمعك
بالأصوات العذبة للآلات الرقيقة،
ومن الفيروز والكهرمان
سوف أبني لك قاعات متألقة،
سوف أمضي محلقاً في السماء
وأغوص إلى أعماق البحر ـ
كل ما اشتهيته سوف أمنحه لك
فقط، أحبيني...»

(11)

وفي غاية النعومة
لامس بشفتيه المتقدتين شفتيها،
مفعمة بالإغواء كانت الكلمات
التي استرضى بها تمنعها الواهي،
شدت نظرته القوية عينيها وأشعلتهما ـ
وفي الظل المتوحد ومض مرفرفاً فوقها،

متألقاً، كسيف محتوم.
كانت تهزمها روح الشر.
تخدرها قبلته، كسم قاتل،
وتخمد القلب داخل صدرها.
صرخة واحدة مروعة أليمة
أيقظت الليلة الساكنة من الرقاد.
كانت شكوى يائسة، أخيرة
لكنها مفعمة بالحب، بصراع الحياة العنيف،
فراق بائس، نهائي....
وداع أخير لحياتها الشابة.

(12)

الحارس الليلي في خفرته
ويده على ناقوسه الحديدي
وهو يمر ــ أسفل الجدار ــ على طول الطريق المرسوم،
تأنّى حين أصاب عقله الاضطراب.
ماذا كان ذلك؟
فمن النوافذ العالية لحجرتها
بدا له صوت قبلة حارة،
وصرخة مفاجئة، وأنَّة مكتومة...
ثارت في صدره شكوك آثمة
وانتصب الرجل العجوز متنصِّتاً،

مستعداً لأن يقرع الناقوس.
لكن الصمت سقط حواليه.
واستطاع أن يتبين صوت حفيف الأوراق المضطرد
المتولد من الرياح
ومن حبيبات الحصى،
تناهت إليه الشكوى الناعمة لأنهار الجبل،
جلية لكنها واهية.
وفي عجلة، استدعى إلى عقله
الصلوات الموصوفة لمواجهة الخداع
والضلالات الشيطانية،
ثم، في النهاية، رسم شارة الصليب
على صدره، بأصابع مرتجفة،
وبأحلامه المترفة بالرقاد،
سار، خائفاً من التباطؤ هناك،
بخطوات متسارعة في طريقه.
. . . .

(13)

فاتنة، كما شبح الباري
رقدت تمارا على فراش موتها.
جبهتها كانت أنقى وأكثر بياضاً
من الوشاح المقدس

الذي ألبسوه لراهبتهم التي ماتت قبل الأوان.
أسدلت الرموش إلى الأبد
لكن، يا إلهي، من الذي لم يقل
إن العيون تحتها كانت ـ فحسب ـ نائمة،
لا تنتظر سوى القبلة القادرة
على إيقاظها من رقادها الساحر
أو أن تشعر بمجرد بزوغ نجمة النهار؟
ورغم ذلك، فقد قبلتها الشمس سدى
بأشعتها الذهبية المتوهجة،
وقبلة أبيها، وحزنه الصامت
لم يستطيعا أن يوقظاها من أحلامها...
لا، ولم يستطع أي شيء أن يكسر خاتم الموت
أو يمنح الليلة الأبدية غداً!

(14)

أبداً، في أيام السعادة
ما كانت الفتاة البائسة تبدو وبهذه الأناقة
ولا ملابسها بهذه البهجة وهذا الإشراق...
كانت تلك عادة بلدها.
نشرت الأزهار من وادي بلدتها
العبير حولها
وأطبقت عليها بإحكام في يدها الميتة

كما لو كانت تتشبث بهذه الأرض!
لا أثر على وجهها الساكن
يوضح كيف لقيت نهايتها ـ
في ثمل متوهج وهوى مميت.
لكنها بدت من سلالة مستقلة،
الملامح الفاتنة منحوتة من المرمر،
خالية من الوعي أو الإحساس،
خالية من كل تعبير عن المشاعر،
متكتمة على كل النيران،
غامضة كما الموت.
على شفتيها استقرت متجمدة
ابتسامة غريبة،
أخذت شكلها النهائي لحظة الرحيل.
ابتسامة متعالية وباردة
كما ابتسامة روح مهيأة للذبول
تروي حكاية بدت كئيبة
لمن كانوا في سمت تقليدي،
وفي صمت تلقي تحية الوداع الأخير
لكل أشياء هذا العالم الداني،
الانعكاس الأخير لفكرتها الأخيرة،
ذكرى فارغة لكل حياتها السابقة،
أكثر موتاً من هاتين العينين المغلقتين إلى الأبد،

ابتسامة كانت تفضي إلى اليأس
بمن وقفوا إلى فراشها.
وهكذا، في ساعة الغروب المهيبة
عندما تحلق مركبة النهار
وهي تذوب في الفناء الذهبي،
لتهبط، عمودياً، إلى البحار الغربية،
وتستقر قوتها، لبرهة قصيرة، على قمم الجبال،
التي تعكس ثلوجها وهجاً وردياً متقداً
يومض خلال الظلام البعيد.
هكذا الشعاع لا يزال واهناً ذابلاً،
ولا يستطيع، من قممها الجليدية البعيدة،
أن يوقظ أية ومضة مجيبة،
حتى يهدي المسافر إلى الطريق!...

(15)

تجمع الآن الأقارب المفجوعون
وحشود الجيران.
ويستنكف «جودال» العجوز عن البكاء جهاراً
وخصلات الشعر الرمادية ممزقة على جبهته
لكنه يمتطي فرسه النبيل صامتاً
ويتخذ الموكب الطريق.
ثلاثة أيام، وثلاث ليال واصلوا المسير

ثم أنزلوا حملهم في النهاية
وسط رفات أجدادها القدماء.
يقولون إن جد «جودال» العجوز كان لصاً
أقلقت مكاسبه الحرام ضميره،
وعندما سقط، ذات يوم، تحت وطأة مرض رهيب،
ظن أن ذاكرته ستتحرر من آثامه الماضية
بقيامه بالتكفير،
وهكذا، تعهد في حضور الشهود
بأن يبني كنيسة
فوق قمة جرانيتية، سامقة
في أعالي التلال
حيث لا صوت يأتي
سوى غناء العاصفة،
حيث ألمكان عش مناسب للحدادي والغربان.
وسرعان ما ارتفع المعبد المنعزل
وسط ثلوج «الكازبيك»،
وهناك، في النهاية،
دفن الوغد عاره مع عظامه.
وهكذا تحولت هذه الصخرة المتوجة بالغيوم
إلى مقبرة لعشيرته.
وكأنما إذ نكون أكثر اقتراباً من السماء
نكون أكثر دفئاً، إذ نرقد بعد الموت؟

وكأننا يجب أن ننام بعمق أكبر
كلما كنا أكثر ابتعاداً عن ضجيج الحياة؟
أمل عقيم!
فالموتى لا يحفظون، حتى في الأحلام،
ذكرى الفرح أو الدموع في الأيام الخوالي...

(16)

محلقاً خلال مساحات السماء الزرقاء،
انطلق الملاك المقدس ذهبي الجناح
وهو يحمل روحها الآثمة
نحو أراضي الله العالية.
وبكلمات الأمل بدد شكوكها،
وهو يحملها في أذرعة قوية،
وبدموعه غسل آثار الرعب والخطايا.
من السماء دوت موسيقى النجوم
لتقابلهم إذ لاحوا
عندما أتى الروح الشيطاني
مندفعاً من الأقاليم السفلية،
مندفعاً بعنف فيما بينهم وبين الغاية الإلهية..
وقوياً كان حينما انطلقت الريح المدوِّمة بالبروق.
مفعماً بالعجرفة والغطرسة المجنونة
طالب بها في ثقة: «ملكي!»

مطوقة بالأذرع القوية،
انكمشت روح تمارا الآثمة
ملتصقة بالملاك الحارس
وهي تداري خوفها بالصلاة.
فها هو قد انتصب أمامها، الآن، من جديد
لكن ـ أيتها السماوات،
من ذا الذي سيعرفه الآن؟
نظرته المحدقة كئيبة ونكدة
سامة بالكراهية الأبدية...
كان ما يشبه الموت ـ بارداً ولعيناً ـ
يتمدد على هذا الوجه الثلجي، على هذه الجبهة الثلجية.

هنا، أجاب رسول السماء:
«فلتذهب، يا روح الظلام!
لقد كان النصر لك، زمناً طويلاً، بما فيه الكفاية،
والآن، اقتربت النهاية.
العدل هو حكم الله!
وأيام الاختبار انتهت، وولت:
فاعلم أنها قد رمت مع جسدها الضعيف
كل دعاوى الشر أيضاً!
لقد انتظرناها زمناً طويلاً:
فروحها إحدى الأرواح النادرة

التي احتملت ــ لدقيقة واحدة ــ ألم الشهداء
ثمناً للوصول إلى فرحة أبدية، بلا شبيه.
ويمد الله خيط حياتها
من الأثير الصافي النقي
فما خُلقت من أجل هذا العالم الكئيب
ولا هو خلق أيضاً من أجلها.
لقد استعادت بثمن قاس
إيمانها المتردد بالقوى العلوية.
عانت، وأحبت، وضحت بحياتها ــ
وانفتحت السماء لحبها!»

صوّب الملاك نظرته الحادة على الشيطان،
العين في العين،
وحلق مبتهجاً...
ليختفي في السماء المتألقة اللانهائية.
راقب الشيطان الأجنحة الغاضبة
تتلاشى، بانتصار، عن الأنظار
فلعن أحلامه عن الأشياء الأفضل،
المحكوم عليها بالهزيمة،
وهو يصب جام غيظه وغطرسته
في هذه اللعنة الهائلة...
وحيداً في كل الكون،

مهجوراً، دون حب أو أمل!....

* * *

على منحدر الجبل الصخري
فوق وادي كويشور
لا يزال الخراب القديم قائماً
حيث برج صخري، متهدم الأساس.
وتتدلى الشائعات
لتبعث القشعريرة إلى مكامن الطفولة.
ونظرة على الأزمان الأسطورية الغابرة
ليكشف الركام الساكن وسط الأشجار
عن السواد والوعيد.
وتمتد ساحة القرية أسفل الجبل،
والأرض خضراء،
فيما يساوم التاجر العابر بصوت عال،
لتختلط الأصوات بموسيقى أجراس جِمال القوافل
القادمة من بلاد بعيدة،
وخلال الظلام
يُزبد الشلال متألقاً أسفل الجدار الصخري،
وتتهلل الطبيعة ضاحكة،
مرحة، كما طفل سعيد،
في حياة تتجدد بصورة أبدية،

في الشمس والظل والربيع الهائج.

وحدها القلعة صمدت
برغم سنوات عمرها ونهاياتها الحزينة
وأيامها الموحشة ـ
كبطريرك عجوز عمّر بعد أصدقائه وعائلته.
وينتظر رفاقُها، مختبئين، أن يطلع القمر:
فيعقدون الوليمة، يفعلون ما يحلو لهم:
يركضون ويضجون من باب لباب...
ثم ينسج العنكبوت الرمادي
في مهارة مملة، صومعته الحريرية.
وتلعب السحالي الخضراء
بمرح حقيقي، فوق صخور الاردواز
وبحذر، يزحف الثعبان الأريب
من زاويته المظلمة
ليتقدم ببطء على طول جدار الشرفة القديم.

حيناً، يدور فجأة ويجدل جسمه
إلى ثلاث حلقات متألقة،
وحيناً يقذف لمعانه الطَّيِّع بقوة
نحو قضيب حديدي مستقيم
رُمح ملقى، مهجوراً، بجانب الحلبة،
أو سيف أحد القتلى ـ

لا علامة عليه، ولا افتقاد له،
غير مطلوب الآن ومنسي تماماً.
كل شيء نما وحشياً،
ولا أثر للسنوات الغابرة،
بعناية واحتراس محتها كلّها يد الزمن:
فالشباب المتألق لجودال
تلاشى دونما تذكار.
واسم ابنته غاب عن الذكر!

وحدها الكنيسة في قمتها الشاهقة،
حيث تلقت الأرض البخيلة أجسادهم في الماضي،
كانت تحميها قوة مقدسة ما
وتحرسها صخور من الجرانيت سوداء منتصبة،
وحراس بلا دروع سوى من الجليد الأبدي
الذي يلمع كالدرّ فوق جباههم،
وأكتافهم تكتسي بمعاطف ثقيلة من الثلوج.
وفي سكينة، تستقر الكتل الجليدية المتجهمة
على المنحدرات الشاهقة،
وكل فيضان جليدي
يشبه شلالاً ثلجياً هائلاً.
وتظل الريح العاصفة حارساً يقظاً،
تنثر التراب الثلجي من الجدار،
حيناً تشق هزيع الليل، وتنادي قصف الرعد،

وحيناً تغني الأغاني الحزينة،
طويلة وخفيضة،
وبعيداً، باتساع المدى
أصبحت الكنيسة مشهورة في كل البلدان –
كمعجزة مقدسة:
ولا تزال وحدها السحب الشرقية
تحتشد حول الكنيسة لتتعبد في المذبح
وفوق الصخور،
حيث ترقد تحتها تمارا وعشيرتها،
حيث لا يقعي حجاج يبكون وينوحون،
وحده يظل الجبل الحزين يقظاً، منحنياً عليهم:
ذلك أن السخط الأبدي للإنسان
لا يمكنه أن يقتحم عليهم رقادهم الأبدي.

– 1841 –

وداعـاً

وداعاً، وداعاً، يا روسياي القذرة،
يا وطن السادة والعبيد الكئيب! وداعاً،
أنت، المعاطف الزرقاء السماوية (*)،
وأنت، شعبي الذي يطيع أوامرها على خير ما تشتهي!

ربما يمكن للقمم القوقازية أن تحميني
من أمرائك ووزرائك،
من أعينهم الحادة، أعينهم التي ترى كل شيء.
ومن آذانهم المرهفة، التي تسمع كل شيء.

- 1841 -

* المعاطف الزرقاء السماوية: إشارة إلى البوليس القيصري.

إشارات القصائد

الشحاذ: القصيدة مهداة إلى «ايكاتيرينا سوشكوفا»، إحدى صديقات ليرمونتوف.

أمنية: يمكن التعامل مع القصيدة من زاوية إيقاعات وموتيفات الفولكلور الروسي، وزاوية فكرة الأسلاف السكتلدنديين لليرمونتوف، واعتبار سكوتلندا وطنه الأم الحقيقي. وقد سلم الشاعر بصحة الاعتقاد بأن والده ينحدر عن جورج ليرمونت، رجل سكتلندي أسرته القوات الروسية في خريف 1613، خلال حصارها لقلعة «بيلايا» البولندية، ليقيم ـ من بعد ـ في روسيا، ويلتحق بالخدمة القيصرية، ويمنح ـ في 1621 ـ إقطاعية في مقاطعة «كوستروما».

موت الشاعر: كتبت القصيدة لدى مقتل بوشكين في 29 يناير 1837. وسرعان ما انتشرت بخطِ اليد لتمنح الشاعر شهرته الكبيرة في أنحاء روسيا.

السجين: كتبت خلال اعتقال الشاعر إثر كتابته «موت الشاعر». ويروي أحد أصدقائه «أنه لم يكن يُسمح لليرمونتوف ـ خلال فترة اعتقاله ـ سوى برؤية خادمه، الذي كان يحضر له الطعام. وقد طلب منه ليرمونتوف أن يلف الخبز في ورق رمادي، وعلى هذه الأوراق، كتب عدة قصائد، مستخدماً النبيذ والسناج وعود الكبريت».

تأملات: كتب «بيلينسكي عن القصيدة: «لقد كتبت القصيدة بدم القلب. لقد

انبثقت من عمق روح منتهكة. إنها صرخة، أنَّة إنسان يمثل غياب الحياة الداخلية ـ بالنسبة له ـ شراً أكثر إفزاعاً لمئات المرات من الموت الجسدي!.. فمن ـ من أبناء الجيل الجديد ـ الذي لن يجد فيها إجابة على كآبته الذاتية، وفتوره الروحي، وخوائه الداخلي، ولن يستجيب لها بصرخته هو، وأنّته هو؟».

صلاة: ترتبط القصيدة بهيام ليرمونتوف بالأميرة «ماريا شِشرباتوفا»، التي ترملت صغيرة السن. ونصحت الشاعر بالصلاة عندما تداهمه الكآبة. وقد وعدها الشاعر بذلك، وكتب هذه القصيدة.

حفل عيد الميلاد: شارك ليرمونتوف في حفل رأس السنة التنكري (1840)، الذي أقيم بمجلس النبالة. وهناك، تعرف على ايفان تورجنيف الذي صدمه مزاجه المكتئب: «لم يترك وحده لمدة دقيقة واحدة في الحفل. فقد كانت النساء اللاتي يضعن الأقنعة يوالين أخذ يده، ويزعجنه بالثرثرة، دون أن يتحرك من مكانه، وهو يستمع إلى هرائهن في صمت، فيما يوجه إليهن نظرته العابسة. لقد تخيلت ـ في هذه المناسبة ـ أنني يمكنني أن أرى في وجهه التعبير الجليل عن اليأس الشعري. وربما كان يؤلف قصيدته تلك فعلاً، في ذلك الحين».

خواء: اعتبر «بيلينسكي» هذه القصيدة تعبيراً نموذجياً عن المزاج العام لزمن ما بعد بوشكين: «مفزع هذا الصوت العميق الذي يشبه القبر، صوت الألم الخفي والعذاب الذي لا ينتمي لهذا العالم، قداس موت كل الآمال المنكسرة، وكل الأحاسيس الإنسانية، وكل فرح الحياة».

الفارس الأسير: كتبت القصيدة فيما كان الشاعر معتقلاً بسبب المبارزة مع «ايرنست دي بارانت»، ابن السفير الفرنسي في سانت بطرسبورج.

لأن: ربما كانت القصيدة مهداة إلى «ماريا شِشرباتوفا».

لست أنت: القصيدة مهداة إلى الكونتيسة «صوفيا سولوجوب»، زوجة الكاتب «فلاديمير سولوجوب».

الفهرس

للمترجم

تأليف:

- **المسرح الشعري العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986.
- **إشراقات** (شعر)، القاهرة 1987.
- **وردة الفوضى الجميلة** (شعر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988.
- **بحثاً عن التراث العربي: نظرة نقدية منهجية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989.

ترجمة وتقديم:

- **الفجر.. وقصائد أخرى**، لبوشكين، دار ابن خلدون، بيروت 1982.
- **نميمة في بنطلون.. وقصائد أخرى**، لمايا كوفسكي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1985.
- **الإبداع القصصي عند يوسف إدريس**، لكربر شويك، دار شهدي، القاهرة 1987.
- **ما لا يُصادَر.. وقصائد أخرى**، لريتسوس (تحت الطبع).

صدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

كلنا .. كلنا .. كلنا نحب البحر	قصص قصيرة	لعدد من كتاب القصة في الإمارات
قصائد من الإمارات	مختارات شعرية	لعدد من شعراء الإمارات
السمكة الصغيرة	قصتان	تأليف : صمد بهرنجي ترجمة : علي عبد العزيز الشرهان وعمر عدس
صلاة العيد والتعب	شعر	عارف الخاجة
معجم القوافي والألحان في الخليج العربي		فالح حنظل
أطفال آخر الزمان	رواية	تأليف : عزيز نيسين ترجمة : عمر عدس
الرجل العاشر	رواية	تأليف : غراهام غرين ترجمة : مصطفى كمال
الأرواح تسكن المدينة	قصة	أنور الخطيب
شدو الزمن	شعر	سلطان خليفة
سالم بن علي العويس	دراسات ومقالات لعدد من الكتاب	جمع واعداد : عبدالاله عبد القادر

• فيروز	قصص	مريم جمعة فرج
• مدينة واحدة لا تكفي لذبح عصفور	شعر	سيف الرحبي
• جغرافية الفردوس	شعر	جعفر الجمري
• سلطان العويس تاجر استهواه الشعر	دراسات ومقالات لعدد من الكتاب	جمع واعداد : عبدالاله عبد القادر
• وردة للوطن وقبلة للحبيبة	شعر	عمر أبو سالم
• أبحاث الملتقى الأول للكتابات القصصيه والروائية في دولة الإمارات العربيه المتحدة		
• تاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات 1960 – 1986	دراسة	عبدالاله عبد القادر
• 12 قصة قصيرة		مجموعة من الكتاب
• فنجان قهوة		عبدالله عبد الرحمن
• هذا هو الساحل أين البحر	شعر	مؤيد الشيباني
• بحثاً عن النهر	شعر	رأفت السويركي
• علي بن المسك التهامي يفاجئ فانليه	شعر	عارف الخاجة
• الرحلة العجيبه	قصص يابانية	ترجمة : فكري بكر
• الاتفاقيات السياسية والاقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عُمان وبريطانيا 1806 – 1971		علي محمد راشد
• ميادير	قصص	ناصر جبران
• الطحلب	قصص قصيرة	إبراهيم مبارك
• عندما تدفن النخيل	قصص	ناصر الظاهري
• خلفان بن مصبح	دراسة	اعداد : شوقي رافع
• طفول	قصص	سعاد العريمي
• ندوة الأدب في الخليج العربي	ــ الجزء الأول	
• تحولات اللغة العربية الدارجة	دراسة	د. علي عبد العزيز الشرهان
• آية الصمت	شعر	ظاعن شاهين
• أرجوزة تحفة الفضاة	نظم العلامة شهاب الدين أحمد بن ماجد	شرح حسين صالح شهاب
• ندوة الأدب في الخليج العربي	ــ الجزء الثاني	
• الشيطان وقصائد أخرى		ترجمة وتقديم : رفعت سلام

منشورات اتحاد كتاب وأدباء الامارات
هاتف 364404 فاكس 364409
ص.ب 4321 الشارقة أ.ع.م

المطبعة الاقتصادية

السعر: 12 درهماً